

المبحث الثاني

رواية أخبار طفولة الرسول ﷺ للطفل

obeikandi.com

رواية أخبار طفولة الرسول ﷺ للطفل

تمهيد :

لقد قصَّ الله تعالى علينا طفولة بعض الأنبياء والرسل، مثل سيدنا إسماعيل، وموسى، وعيسى، ويحيى، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام؛ لتكون إخباراً للأمة المحمدية فيحفظوها، ويحفظوها أبناءهم، ويأخذوا منها العبر والعظات، ويشاهدوا قدرة الله تعالى في خلق المستحيل على البشر، وأنه بالنسبة إليه سبحانه أهون عليه لأنه الخالق . فتمتزج القصة القرآنية، وهي تتحدث عن ولادة رسول أو نبي، بروح سامعها؛ وتسرى العقيدة في النفس من خلال نموذج محسوس ملموس في عالم الواقع، فتقوى العقيدة بالقصة القرآنية، ويزداد الإيمان من خلال تلاوة الآيات بذلك .

فتحديث الأطفال عن القصص القرآنية عامة، وعن طفولة بعض الأنبياء والرسل عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام خاصة يزيد من الحرارة الإيمانية لدى الأطفال، كما يشعرهم بأن الإسلام هو الدين الحق الذى يؤمن بالرسالات جميعاً، وأنهم أصحاب حق في قيادة البشرية في المستقبل، ودعوتها إلى القرآن بكل فخر واعتزاز؛ لأن المسلم هو الوحيد الذى لم يُجَبَّئ شيئاً من آيات القرآن، ولم يسترها، وإنما هو واضح المعالم في دينه الذى يعتمد اعتماداً أساسياً على القرآن، وعلى سنة رسوله ﷺ .

ولكن ما هي الحكمة في عدم ذكر طفولة سيدنا محمد ﷺ في القرآن، كما ذكرت طفولة إخوته من الأنبياء والمرسلين ممن سبقوه؟! هذه بعضها :

١- أن طفولة الأنبياء والمرسلين السابقين قد نُسيَت، أو حُرِّفَت، فذكرها القرآن

لحفظها، ولتعلم المسلم بحقائق تاريخية سابقة تُعينه على التعرف على تاريخ الرسل منذ طفولتهم، ودعاء آبائهم لهم أن يهبهم الله تعالى إياهم . فيكون المسلم هو الوحيد الذى يعلم دقائق وتفاصيل حياة الأنبياء والرسل، فيدعو أتباع الرسل إلى الإيمان بالقرآن وبسيدنا محمد ﷺ الذى أتى بهذه التفاصيل، وهو لم يتعلم من أحد تلك الأخبار، وإنما هى آيات تنزل عليه فيعلمها الناس كل الناس .

٢ - لو ذكرت طفولة سيدنا محمد ﷺ فى القرآن لقال الكفار على مدار التاريخ : إن محمداً يمدح نفسه، ويُجَلِّدُ ذُكْرَاهُ فى القرآن، بينما نرى القرآن عندما يتحدث عن نبينا ﷺ يذكر نبوته، ورسالته، ودعوته للكفار، وجهاده لهم .

٣ - إن الله تعالى حفظ طفولة سيدنا محمد ﷺ بحفظه للقرآن، وشارح القرآن هو السنة، فحفظاً معاً بتأييد الله تعالى، وحفظه، ونصرته لنبيه ﷺ .

٤ - أن الله تعالى شرف الأمة المحمدية، وخصها بحفظ سيرة نبينا ﷺ بكامل دقائقها من طفولته حتى انتقاله للرفيق الأعلى حفظاً دقيقاً، مفصلاً، بخلاف الأمم السابقة، التى لم تحفظ، وإن حفظت شيئاً فقد نالته الأقلام بالتحريف والتبديل، وبذلك أظهر الله تعالى مكانة الأمة المحمدية، ودقتها العلمية فى الحفظ، حتى غدا علم تدوين السنة النبوية من خصائص الأمة المحمدية، ولم تستطع البشرية فى تاريخها الطويل أن تجد ثغرة فى الطعن به، أو التأثير عليه، على الرغم من محاولاتها المتكررة .

٥ - إن طفولة سيدنا محمد ﷺ كانت فى غاية النظافة والطهر والاستقامة فى ظل مجتمع جاهلى يشجع على الفاحشة، ويدعو للشأر لأنفه الأسباب، ويسجد للحجارة التى أسماها أصناماً، حتى غدا للجميع ولبسانهم جميعاً وصف رسول الله ﷺ (الصادق الأمين) . والذى لم ينل هذا الشرف أى إنسان عاش فى تلك المجتمعات الهابطة، ولو علم كفار مكة عن طفولة سيدنا محمد ﷺ أى شىء

يُشِينَهُ أَوْ يَعْيبُهُ لَتَسَارِعُوا إِلَيْهِ، وَنَثَرُوهُ فِي مَوَاجِئِهِ، وَهَكَذَا انْبَلَجَ الْحَقُّ نَاصِعًا، وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ .

وبذلك ازداد عدد حفاظ سيرة طفولة سيدنا محمد ﷺ من المؤمنين به، ومن أعدائه أيضاً، وهذا من أسرار تأييد الله تعالى لنبيه ﷺ .

تلك ملامح من حِكَم وأسرار، ولعل البعض يزيد، وسوف يزيد، إن شاء الله تعالى، أحببت أن أقدمها للمهتمين بتربية الأبناء؛ ليتعرفوا أكثر على أهمية رواية طفولة سيدنا وقائدنا محمد ﷺ، وتحفيظ سيرته الشريفة لهم .

وقد أحببت تقديم طفولته ﷺ في هذا الكتاب، وإن كان هذا الموضوع من اختصاص كتب السيرة الشريفة، ولكن لتأصيل أساس في المنهج التربوي النبوي في تثبيت عقيدة الطفل المسلم، ألا وهو ربطه بنبيه ورسوله ﷺ بدءاً من طفولته إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

وإليك أهم أحداث طفولته ﷺ :

الأساس الأول : حفظ وطهارة نسبه الشريف ﷺ وتبشير الرسل به :

١- حفظ نسب النبي ﷺ من جهة أبيه :

قال البخاري في كتاب: المناقب، باب : مبعث النبي ﷺ :

مَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيٍّ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ بْنِ فِهْرٍ بْنِ مَالِكٍ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِيَّاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نَزَارٍ بْنِ مَعَدٍّ بْنِ عَدْنَانَ .

وهذا النسب ذكره كل من ابن هشام في سيرته (١ / ١) وابن سعد (١ / ٥٥).

٢- حفظ نسب النبي ﷺ من جهة أمه :

قال ابن هشام : وأمه أمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة
ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر [بن كنانة] ^(١) .

٣- فضل نسب النبي ﷺ وطهارته :

روى مسلم في كتاب : الفضائل، باب : فضل نسب النبي ﷺ، عن واثلة بن
الأسقع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى
من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم» .

وفي رواية الترمذي : «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من
ولد إسماعيل بنى كنانة ... الحديث» ^(٢) .

وروى الترمذي، وقال : حديث حسن، عن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال :
جاء العباس إلى رسول الله ﷺ، فكأنه سمع شيئاً، فقام النبي ﷺ على المنبر فقال : «مَنْ
أنا؟» قالوا : أنت رسول الله، عليك السلام، قال النبي ﷺ : «أنا محمد بن عبد الله بن
عبد المطلب، إن الله خلق الخلق، فجعلني في خيرهم فرقةً، ثم جعلهم فرقتين فجعلني
في خيرهم فرقةً، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلةً، ثم جعلهم بيوتاً، فجعلني
في خيرهم بيتاً، وخيرهم نفساً» . ورواه أحمد، والبيهقي في «الدلائل» .

٤- سيدنا محمد ﷺ ابن الذبيحين :

تذكر كتب السيرة أن جدّ النبي ﷺ عبد المطلب نذر إن رزق عشرة من الذكور،
وبلغوا : أنه سيذبح العاشر منهم، فكان العاشر عبد الله والد النبي ﷺ، فهم بذبحه،
إلا أن قومه منعه من أن تصبح عادة في العرب، وجرى فداؤه بمائة من البعير،

(١) زادها البيهقي في الدلائل (١/١٨٣)، وابن سعد في الطبقات (١/٥٩) .

(٢) انظر بتوسع : الجامع في السيرة النبوية للأستاذة سميرة زايد .

وهكذا أصبح سيدنا محمد ﷺ ابن الذبيحين : الذبيح الأول : سيدنا إسماعيل ^(١) ،
والذبيح الثاني : عبد الله والد النبي ﷺ ، وهذا لمزيد شرف، وفضل النبي ﷺ على
جميع الخلق .

وفي تسمية والد النبي ﷺ بعبد الله، وهو أحب الأسماء إلى الله تعالى، إشارة إلى
نجاته من النار، إذ قلّ من العرب من تسمى بعبد الله، وإنما كانوا يسمون بعبد
العزى، وبعبد الحكم، وعبد اللات ^(٢) .

٥ - تقدم نبوة سيدنا محمد ﷺ على نفخ الروح في آدم عليه السلام :

عن العرياض بن سارية رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إني عند الله في أم الكتاب
لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته» . رواه أحمد، والحاكم، وصححه .

قال الصالحى فى سبل الهدى والرشاد (١/٧٧-٧٨) : والمعنى : كُتِبَتْ خاتم
الأنبياء فى الحال الذى آدم مطروح على الأرض حاصل فى أثناء تخلُّقه، لما يُفرغ من
تصويره، وإجراء الروح .

٦ - أخذ الله تعالى الميثاق على الأنبياء والرسل بالإيمان بسيدنا محمد ﷺ ونصرته إذا بُعث :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ
ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ
عَلَىٰ ذُلِكُمْ إِصْرِي ۚ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا ۚ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۚ ﴿٢٠﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۚ ﴾ [آل عمران] .

روى ابن جرير عن على - كرم الله وجهه - فى تفسير الآية قال : لم يبعث الله نبياً،

(١) تزعم اليهود أن الذبيح كان إسحاق عليه السلام، وهذا كذب وزور؛ لأن إسماعيل وأمه كانا فى
مكة، وتوارث أهل مكة السعى بين الصفا والمروة، ورمى الجمرات، والذبيح كله بمكة لا فى الشام
انظر : رد ابن القيم - رحمه الله - فى المواهب اللدنية للقسطانى (١/١١١) المكتب الإسلامى .
(٢) انظر بتوسع : سبل الهدى والرشاد (١/٢٤٧)، وسيأتى برهان ذلك إن شاء الله .

آدم فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ : لئن بُعث وهو حي ليؤمننّ به،
ولينصرنّه، وأمره بأخذ العهد على قومه .

وقال الخافظ تقي الدين السبكي - رحمه الله : في هذه الآية من التنويه بالنبي ﷺ
وعظيم قدره ما لا يخفى؛ أنه على تقدير مجيئه في زمانهم يكون مُرسلاً إليهم، فتكون
نبوته ورسالته عامّة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة، ويكون الأنبياء
وأعمهم كلهم من أمته، ويكون قوله ﷺ : «بعثت إلى الناس كافة» (رواه أحمد
والبيهقي والطبراني في الكبير) لا يختص به الناس في زمانه إلى يوم القيامة، بل
يتناول من قبلهم أيضاً^(١) .

٧ - سيدنا محمد ﷺ دعاء سيدنا إبراهيم، وبشارة سيدنا عيسى عليهم
الصلاة والسلام :

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قلت : يا نبي الله، ما كان أول بدء أمرك؟ قال ﷺ :
«دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي نوراً أضاءت منه قصور الشام»^(٢) .
رواه أحمد و الطبراني والبيهقي في الدلائل، وقال الهيثمي في المجمع (٢٢٢ / ٨) :
وإسناده حسن .

وهذا تفسير قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة] . وَإِذْ
قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَنْبِئُ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ
التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا
سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٨﴾ [الصف] .

(١) انظر بتوسع : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١ / ٩٠) للإمام محمد بن يوسف الصالحى
الشامى (ت ٩٤٢ هـ) ط . دار الكتب العلمية .
(٢) انظر : صحيح السيرة لإبراهيم العلى (ص ٢٥) .

الأساس الثاني : الإرهاصات ^(١) التي حصلت قبل مولده الشريف ﷺ :

١- رؤيا جد النبي ﷺ عبد المطلب لحفر ماء زمزم :

عن علي - كرم الله وجهه - قال : « قال عبد المطلب : إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت، فقال لي : احفر طيبة، قلت : وما طيبة؟ قال : ثم ذَهَبَ عني . قال : فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فَنَمْتُ فيه، فجاءني فقال : احفر برة، قال : قلت : وما برة؟ قال : ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فَنَمْتُ فيه، فجاءني فقال : احفر المَضْنُونَة، قال : قلت : وما المَضْنُونَة؟ قال : ثم ذهب عني . فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فَنَمْتُ فيه؛ فجاءني؛ فقال : احفر زمزم، قال : قلت : وما زمزم؟ قال : لا تنزف أبداً، ولا تزم؛ تسقى الحجاج الأعظم، وهي بين الفَرث والدِّم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل .

قال : فلما بَيَّنَّ شأنها، ودَلَّ على موضعها، وعرف أنه قد صدق، غدا بمعوله، ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليس معه يومئذ ولد غيره، فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطي كَبَّرَ ^(٢)، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه، فقالوا : يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً، فأشر كنا معك فيها، قال : ما أنا بفاعل إن هذا الأمر قد خُصِصَ به دونكم، وأُعْطِيت من بينكم، قالوا له : فأنصفنا، فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال : فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا : كاهنة بنى سعد بن هذيم، قال : نعم، وكانت بأشرف الشام .

فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أمية، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز، حتى إذا كانوا ببعضها نَقَدَ ماء عبد المطلب وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من كانوا معهم فأبوا عليهم،

(١) وهي الأمور الخارقة للعادة، فتسمى قبل البعثة إرهاصات، وبعد نزول الوحي تسمى معجزات .
(٢) أرأيت حنيفية عبد المطلب بالتكبير في قوله : الله أكبر، فلم يتلفظ بكلمة الأصنام، ولا كلمة الشرك بالله تعالى !! وصدق الله تعالى : ﴿ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴾ [الشعراء] .

وقالوا : إنا بمفازة، وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم، فقال عبد المطلب : إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه بما لكم الآن من القوة . فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرة ثم واروه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه؛ فقالوا : نَعَمْ ما أمرت به .

فحفر كل رجل لنفسه حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عَطَشاً .

ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله، إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا ضربٌ في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد، ازتحلوا، فارتحلوا حتى إذا بعث عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب ^(١)، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب، وشرب أصحابه، واستسقوا حتى ملؤوا أسقيتهم، ثم دعا قبائل قريش - وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال - فقال : هَلُمُّوا إلى الماء فقد سقانا الله، فجاؤوا فشربوا، واستقوا كلهم، ثم قالوا : قد والله قضى لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع، ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، واخلوا بينه وبين زمزم . رواه ابن إسحاق، وقال : حدثني يزيد بن حبيب ... ^(٢) .

٢- قصة أصحاب الفيل، وظهور إيمان عبد المطلب بالله تعالى، ودعاؤه له:

ننقل فيما يلي قصة أصحاب الفيل من أوسع كتب السيرة، ومن أوثقها ألا وهو: (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) لمؤلفه العلامة الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى والمتوفى سنة (٩٤٢هـ) (١/٢١٤) وذلك لما يتمتع من

(١) أرأيت إلى إكرام الله تعالى لعبد المطلب جد رسول الله ﷺ، وتكبيره عند حصوله على الماء، وشكره الله تعالى .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (١/١٤٢-١٥٥)، ورواه البيهقي في الدلائل (١/٩٣-٩٥) وعبد الرزاق في مصنفه (٥/٣١٤) وابن سعد في طبقاته (١/٨٣)، والحديث صحيح من طريق البيهقي وابن هشام، انظر : صحيح السيرة (ص ٣٥) .

استدراكات، وشرح، وتفصيل لبعض المواقف ^(١).

في قصة إهلاك أصحاب الفيل :

وذلك عام ولادته ﷺ على الصحيح الذي عليه أكثر العلماء .

وكان إهلاكهم تشريعاً له ﷺ ولبلده، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه أهل مكة؛ لأن أهل مكة كانوا عبّاداً أو ثنان، فنصرهم الله تعالى نصراً لا صنّع للبشر فيه، ولسان حال القدر يقول : لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخير يتكم عليهم، ولكن صيانةً للبيت العتيق الذي نشرّفه ونعظّمه ونوقره ببعثة النبي الأمي خاتم الأنبياء محمد ﷺ .

قال الله سبحانه وتعالى : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ، أى : ألم تعلم . قدره على وجود علمه بما يذكر . وقيل : الاستفهام هنا للتعجب، إذ هو أمر منقول نقل المتواتر . فكأنه قيل : قد علمت أو تعجّب : ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ عبّر بكيف دون ما؛ لأن المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله تعالى وقدرته وعزة بيته وشرف رسوله ﷺ : فإنها من الإرهاصات لنبوته؛ إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء : ﴿ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ محمود . ﴿ أَلَمْ تَجْعَلْ كَيْدَهُمْ ﴾ أى : يجعل كيدهم فى هدم الكعبة : ﴿ فِي تَضَلُّلٍ ﴾ خسار وهلاك بأن أحرق البيت الذى بنوه قاصدين أن يرجع حجّ العرب إليه، وبأن أهلكهم لما قصدوا هدم الكعبة بيت الله تعالى ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا ﴾ اسم جمع يجوز تأنيثه وتذكيره ﴿ أَبَابِيلَ ﴾ جماعات، قيل : لا واحد له وقيل : واحده : أبول، أو إبال، أو إبيل كعجول، ومفتاح، ومسكين . وعلى تذكير الطير قرئ : «يرميهم» بالمشاة التحتية . وقيل : الضمير للرب سبحانه ﴿ بِحِجَارَةٍ ﴾ فوق العدسة ودون الحمصة، كما فى أكثر الأخبار، مكتوب على كل حجر اسم مرميه،

(١) قام بتحقيقه كل من الشيخين : عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، وطبعته دار الكتب العلمية .

يحمل كل طائر ثلاثة أحجار : واحداً بمنقاره وحجرين برجليه ﴿مَنْ سَجِلَ﴾ طين مطبخ ﴿فَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ كورق زرع أكلته الدواب وروثة فيبس وتفرقت أجزاؤه، شبه تفرق أجزاءهم بتفرق أجزاء الروث .

الإشارة إلى القصة على وجه الاختصار :

كان ذو نواس^(١) آخر ملوك اليمن مشركاً، وهو الذي قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى قريباً من عشرين ألفاً فنجا منهم دؤس ذو ثعلبان، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الروم، وكان نصرانياً، فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم، فبعث معه أميرين : أرياط وأبرهة بن الصباح أباً يكسوم في جيش كثيف، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار واستلبوا الملك من حمير، وهلك ذو نواس غريقاً في البحر .

واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران أرياط وأبرهة، فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا، وتصافا، فقال أبرهة لأرياط : إنه لا حاجة بنا إلى اصطلام الجيش بيننا، ولكن ابرز إلى وأبرز إليك، فأينا قتل الآخر استقل بالملك بعده . فأجابته إلى ذلك، فتبارزا وخلف كل واحد منهما فتاه، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه وشق وجهه، وحمل عتودة مؤلى أبرهة على أرياط فقتله، ورجع أبرهة جريحاً، فداوى جرحه فبرئ، واستقل بملك الحبشة باليمن .

فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه ويتوعده، وحلف ليطأن بلاده

(١) ذو نواس الحميري : آخر ملوك حمير في اليمن . وهو صاحب الأخدود المذكور في القرآن الكريم . كان يدين باليهودية، وبلغه أن أهل نجران مقبلون على النصرانية، فسار إليهم وحفر أخاديد وملاها جراً وجمع أعيان المنتصرين منهم، فعرضهم على النار، فمن رجع إلى اليهودية نجا، ومن أبى هوى . واتفق الرومان والحبشة على قتاله، فزحف النجاشي وكان على النصرانية، بجيش كبير، فقاتله ذو نواس على ساحل البحر الأحمر عند عدن، فكان الظفر للنجاشي، وخاف ذو نواس الأسر فأطلق جواده نحو البحر، فألقى نفسه راكباً فمات غريقاً . قال النويري : وهو آخر من ملك اليمن من قحطان، فجميع ما ملكوا سن السنين ثلاث آلاف سنة واثنان وثمانون سنة . توفي سنة (١٠٢) ق. هـ. الأعلام (٩٢٨/٣) . قاله محققو كتاب سبل الهدى والرشاد .

وَلِيَجْزَنَ نَاصِيَتَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبْرَهَةَ يَتَرَفَّقُ لَهُ وَيَصَانَعُهُ، وَبَعَثَ مَعَ رَسُولِهِ بَهْدَايَا وَتَحْفَ وَبِجَرَابٍ فِيهِ تَرَابُ الْيَمَنِ، وَجَزَّ نَاصِيَتَهُ وَأَرْسَلَهَا مَعَهُ وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ: لِيَطَأَ الْمَلِكُ عَلَى هَذَا التَّرَابِ فَيَبْرَ قَسَمَهُ، وَهَذِهِ نَاصِيَتِي قَدْ بَعَثْتُ بِهَا إِلَيْكَ، وَأَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ .
فَلَمَّا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيْهِ أَعْجَبَهُ وَرَضِيَ عَنْهُ وَأَقَرَّهُ .

ثم إن أبرهة رأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج إلى بيت الله الحرام فسأل :
أين يذهب الناس ؟ ف قيل له : يحجّون إلى بيت الله بمكة . قال : ما هو ؟ قالوا : من
حجارة ؟ قال : فما كسوته ؟ قالوا : ما يأتي من ها هنا من الوصائل . قال : والمسيح
لأبنيّن لكم خيراً منه .

فبنى لهم كنيسة هائلة بصنعاء رفيعة البناء مزخرفة الأرجاء، فسمتها العرب
الْقَلْبَيسَ لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها يكاد تسقط قلنسوته عن رأسه لارتفاع بنائها،
ونقل من قصر بلقيس ما تحتاج إليه، واستدّل أهل اليمن في بنيان هذه الكنيسة،
وبناها بالرخام المجزّع والأبيض والأحمر والأصفر والأسود، وحلاه بالذهب
والفضة وفصل بينهما بالجواهر، وجعل فيها ياقوتة حمراء عظيمة، ونصب فيها
صُلباناً من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنس، وكان يوقد فيها بالمنديل
ويلطخ جذرها بالمسك، وكان حُكمه في العامل إذا طلعت عليه الشمس قبل أن
يأخذ في عمله أن يقطع يده، فنام رجل منهم ذات يوم حتى طلعت الشمس فجاءت
معه أمّه وهي امرأة عجوز فتضرعت إليه تشفع لابنها وأبى إلا أن يقطع يده،
فقال: اضرب بمغولك اليوم لك وغداً لغيرك . فقال : ويحك ما قلت ؟ قالت:
نعم، صار هذا الملك من غيرك إليك، وكذلك يصير إلى غيرك فأخذته موعظتها
وأعفى الناس من ذلك .

ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبن مثلها لملك
قبلك، ولست بمُمتّه حتى أضرف حج العرب إليها . فأمر الناس فحجوها، فحججه

كثير من قبائل العرب سنين، ومكث فيها رجال يتعبدون ويتأهلون ونسكوا له .

قال ابن إسحاق - رحمه الله تعالى : فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من النساء أحد بنى فُقَيْمٍ، فخرج إلى القُلَيْس فقعدها فيها،
يعنى : أَحَدَتْ، ثم خرج فلحق بأرضه .

وقال ابن سعد - رحمه الله تعالى : وكان نُفَيْل بن حبيب الحُثُعَمِي يُورِّض له ما يكره، فأمهل حتى إذا كان ليلة من الليالي لم ير أحداً يتحرك فقام فجاء بعذرة فلطخ بها قِبْلَتَهُ، وجمع جيفاً فألقاها فيها .

وقال مقاتل - رحمه الله تعالى : إن فتية من قريش دخلوها فأطلقوا فيها ناراً وكان يوماً فيه هواء شديد فاحترقت وسقطت . انتهى .

فأخبر بذلك أبرهة فقال : من صنع هذا ؟ قيل : صنعه رجالٌ من أهل هذا البيت الذى يحجه العرب، يعنى أنها ليست لذلك بأهل .

فغضب غضباً شديداً، وحلف ليسيرن حتى يهدم الكعبة وينقضها حجراً حجراً، وكتب إلى النجاشي يخبره بذلك ويسأله أن يبعث إليه بفيله، وكان له فيل يقال له محمود، وكان فيلاً عظيماً لم يُر مثله فى الأرض عِظْماً وقوة، فبعث به إليه، فأمر الحبشة فتجهزت فى ستين ألفاً، ثم سار نحو أرض مكة .

فلما سمعت العرب ذلك أعظموه، وفطَّعوا به، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة .

فخرج له رجل من أشراف اليمن يقال له : ذو نَفرٍ، فدعا قومه ومن أطاعه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله تعالى، وما يريد من هدمه وخرابه، فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهزَم ذو نَفرٍ وأصحابه، وأخذ له ذو نفر فأتى به إليه أسيراً، فلما أراد قتله قال له ذو نفر : أيها الملك لا تقتلني، فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من القتل، فتركه، وحبسه عنده فى وثاق .

ثم سار أبرهة يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له ثقيف بن حبيب الخثعمي في قومه ومن أطاعه من قبائل العرب فقاتله، فهزمه أبرهة وأخذ له ثقيف أسيراً فأتى به، فلما هم بقتله قال له نفييل : أيها الملك لا تقتلني فإنني دليلك بأرض العرب . فخلى سبيله .

وخرج أبرهة يريد مكة، حتى مر بالطائف فخرج إليه مسعود بن مُعَتَب في رجال من ثقيف فقالوا : أيها الملك، إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، وليس لك عندنا خلاف وليس بيتنا البيت الذي تريد، يعنون اللات، وهو بيت الطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة، إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه، فتجاوز عنهم، فبعثوا معه أبا رغال يدلّه على الطريق إلى مكة، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله، بالمغمّس . فلما أنزله به مات أبو رغال فرجعت العرب قبره، فهو الذي يرحم الناس بالمغمّس .

فلما نزل أبرهة بالمغمّس بعث رجلاً من الحبشة يقال له : الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق أموال تهامة من قريش وغيرها، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فهتت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم بحربه .

بعث أبرهة حنّاطة الحميري إلى مكة وقال له : سل عن سيد أهل البلد وشريفهم، ثم قل له : إن الملك يقول : إنني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يُرد حربى فأتني به .

فلما دخل حنّاطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل : عبد المطلب بن هاشم . فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه فهو بيته

وَحَرَمَهُ، وَإِنْ يَخْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فَوَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعَ عَنْهُ . قَالَ حُخَاطَةُ : فَاَنْطَلَقَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ آتِيَهُ بِكَ . فَاَنْطَلَقَ مَعَهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ وَمَعَهُ بَعْضُ بَنِيهِ حَتَّى أَتَى الْعَسْكَرَ، فَسَأَلَ عَنْ ذِي نَفَرٍ وَكَانَ صَدِيقًا لَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ فَقَالَ لَهُ : يَا ذَا نَفَرٍ، هَلْ عِنْدَكَ غَنَاءٌ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا نَزَلَ بِنَا ؟ فَقَالَ لَهُ ذُو نَفَرٍ : مَا غَنَاءُ رَجُلٍ أَسِيرٍ بِيَدِ مَلِكٍ يَنْتَظِرُ قَتْلَهُ غَدَوًا وَعَشِيًّا، وَاللَّهِ مَا عِنْدِي غَنَاءٌ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا نَزَلَ بِكُمْ إِلَّا أَنْ أُنِيسَا سَائِسَ الْفِيلِ صَدِيقِي لِي فَأَرْسِلَ إِلَيْهِ فَأَوْصِيَهُ بِكَ، وَأَعْظِمَ عَلَيْهِ حَقَّكَ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَكَ عَلَى الْمَلِكِ فَتَكَلِّمَهُ بِمَا بَدَا لَكَ، وَيَشْفَعُ لَكَ عِنْدَهُ بِخَيْرٍ إِنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ . فَقَالَ : حَسْبِي .

فَبَعَثَ ذُو نَفَرٍ إِلَى أُنَيْسَ، فَجَاءَ فَقَالَ : هَذَا عَبْدُ الْمَطْلَبِ سَيِّدُ قَرِيشٍ وَصَاحِبُ عَيْنِ مَكَّةَ، يُطْعِمُ النَّاسَ بِالسَّهْلِ وَالْوَحُوشِ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ، قَدْ أَصَابَ الْمَلِكُ لَهُ مَائَتِي بَعِيرٍ، فَاسْتَأْذِنَ لَهُ عَلَيْهِ وَانْفَعَهُ عِنْدَهُ بِمَا اسْتَطَعَتْ . قَالَ : أَفْعَلُ .

فَكَلَّمَ أُنَيْسَ أَبْرَهَةَ فَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ، هَذَا سَيِّدُ قَرِيشٍ يَبَابُكَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْكَ، وَهُوَ صَاحِبُ عَيْنِ مَكَّةَ، يُطْعِمُ النَّاسَ بِالسَّهْلِ وَالْوَحُوشِ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ، فَائْذَنَ لَهُ عَلَيْكَ فَلِيَكَلِّمَكَ فِي حَاجَتِهِ . فَأْذَنَ لَهُ أَبْرَهَةُ .

وَكَانَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ أَوْسَمَ النَّاسِ وَأَجْمَلَهُمْ وَأَعْظَمَهُمْ، فَلَمَّا رَأَى أَبْرَهَةَ أَجَلَّهُ وَأَكْرَمَهُ عَنْ أَنْ يَجْلِسَ تَحْتَهُ، وَكَرِهَ أَنْ تَرَاهُ الْحَبْشَةُ يَجْلِسُ مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ، فَجَلَسَ عَلَى بَسَاطَةٍ وَأَجْلَسَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ مَعَهُ إِلَى جَنْبِهِ .

وَفِي «الدَّرِّ الْمُتَنَزِّمِ» أَنَّ عَبْدَ الْمَطْلَبِ لَمَّا دَخَلَ عَلَى أَبْرَهَةَ سَجَدَ لَهُ فَيْلٌ مِنَ الْفِيلَةِ، وَكَانَ لَا يَسْجُدُ لِأَبْرَهَةَ كَغَيْرِهِ مِنَ الْفِيلَةِ، فَتَعَجَّبَ أَبْرَهَةُ مِنْ ذَلِكَ وَدَعَا بِالسَّحَرَةِ وَالْكَهَانِ فَسَأَلَهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَقَالُوا : إِنَّهُ لَمْ يَسْجُدْ لَهُ وَإِنَّمَا سَجَدَ لِلنُّورِ الَّذِي بَيْنَ عَيْنَيْهِ . انْتَهَى .

ثُمَّ قَالَ لَتَرْجَمَانِهِ : قُلْ لَهُ : مَا حَاجَتُكَ ؟ فَفَعَلَ التَّرْجَمَانُ، قَالَ : حَاجَتِي أَنْ يَرْدَ عَلَى الْمَلِكِ مَائَتِي بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي . فَلَمَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ قَالَ أَبْرَهَةُ لَتَرْجَمَانِهِ : قُلْ لَهُ : قَدْ كُنْتُ أَعْجَبْتُنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهَدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي فِي مَائَتِي بَعِيرٍ أَصَبَتْهَا

لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك جئتُ لهدمه لا تكلمنى فيه !؟

قال عبد المطلب : أنا ربُّ الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه . قال : ما كان ليمنع منى . قال : أنت وذاك .

قال ابن السائب ومقاتل - رحمهما الله تعالى : ثم إنَّ عبد المطلب عرَّض على أبرهة أموال تهامة ويرجع عن خراب البيت، فأبى ورد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصاب، فقلَّدها وأشعرها وجلَّلها وجعلها هدياً للبيت وبثَّها فى الحرم، فعمد القوم إليها فحملوا عليها وعقروا بعضها، فدعا عليهم عبد المطلب .

قال مقاتل : فقال عبد المطلب :

لا هُمَّ أَحْزَ الْأَسْوَدَ بْنَ مَقْصُودٍ	الْأَخِذْ الْهَجْمَةَ بَعْدَ التَّقْلِيدِ
فَتَلَّهَا إِلَى طَهَاطِمَ سَوْدٍ	بَيْنَ ثَبِيرٍ وَحِرَا وَالْيَبِيدِ
وَالْمَرْوَتَيْنِ وَالْمَسَاعِي السُّودِ	يُهَدِّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ الْمَقْصُودِ
قَدْ أَجْمَعُوا أَنْ لَا يَكُونَ لَكَ عِيدٌ	أُخْفِرُهُمْ رَبِّى وَأَنْتَ الْمُحْمُودِ

وذكر ابن إسحاق - رحمه الله تعالى - نحوها لعكرمة بن عامر وهو من مُسلمة الفتح . فالله تعالى أعلم .

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج إلى مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب خوفاً عليهم من مَعَرَّةِ الجيش .

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قريش يدعون الله تعالى، ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب :

(١) انظر : الروض الأنف (١ / ٧٠) ورواية الأبيات هناك هكذا :

لاهم أحز الأسود بن مقصود	الآخذ الهجمة فيها التقليد
بين حراء وثير فالييد	يحبسها وهى أولات التطريد
فضمها إلى طهاطم سود	أخفـره يارب وأنت محمود

لَا هُمْ إِنَّ الْمَرْءَ يَمُـ
لَا يَغْلِبَنَّ صَالِيَهُمْ
انْصُرْ عَلَى آلِ الصَّلِيلِ
إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَكُفُـ
نَعُ رَحْلَهُ فَاثْمَعُ حِلَالُكَ
وَمَحَاهُمْ عَدُوًّا مَحَالُكَ
سَبَّ وَعَابِدِيهِ الْيَوْمَ أَلُكَ
بِتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ^(١)

وعند البيهقي - رحمه الله تعالى - أن عبد المطلب قام يدعو على الحبشة فقال :

يَا رَبِّ لَا أَرْجُو لَهُمْ سَوَاكَ
امْنَعُهُمْ أَنْ يُجْرِبُوا قُرَاكَ
يَا رَبِّ فَاثْمَعُ مِنْهُمْ حِمَاكَ
إِنْ عَدُوَّ الْبَيْتِ مَنْ عَادَاكَ

قال ابن إسحاق - رحمه الله تعالى : ثم إن عبد المطلب انطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَفِ الجبال فتحرّزوا فيها، ينظرون ما أبرهة فاعلٌ بمكة إذا دخلها .

وذكر مقاتل - رحمه الله تعالى - أن عبد المطلب لم يخرج معه بل أقام بمكة وقال : لا أبرح حتى يقضى الله قضاءه . ثم صعد هو وأبو مسعود الثقفي على مكان عال لينظر ما يفعله أبرهة .

فلما أصبح أبرهة تهباً لدخول مكة، وهياً فيله، وعباً جيشه .

قال ابن جرير - رحمه الله تعالى : ويقال : كان معه ثلاثة عشر فيلاً هلكت كلها .

ونقل الماوردي عن الأكثرين أنه لم يكن معهم إلا فيل واحد اسمه محمود . وعن الضحاك : كان معه ثمانية أفيلة .

وأبرهة جُمِعَ لهَدَمُ البيت : زاد مقاتل : وجعل الفيل مُقَابِلَ الكعبة ليعظم، ويعبد لتعظيم الكعبة . وقال غيره : بل ليجعل السلاسل في أركان الكعبة وتوضع في عنق الفيل ثم يُزجر ليلقى الحائط جملة واحدة .

(١) انظر : الروض الأنف (١/ ٧٠) ورواية البيت الرابع : وقبلتنا بدل كعبتنا، وهي رواية ابن كثير أيضاً. انظر : البداية والنهاية (٢/ ١٧٣) ورواية البيت الأول في البداية : فامنع رحالك .

فلما وجَّهوا الفيل نحو الكعبة أقبل نفيل بن حبيب فأخذ بأذنه وقال : يا محمود، أنت بحرم الله . ثم خرج نُفَيْل يشتدّ حتى أضعدَ في الجبل فبرك الفيل فضربوه بالطَّبْرَزين ليقوم فأبى، فأدخلوا مُحَاجِنَ لهم في مراقه فبرَّغوه بها ليقوم فأبى، فوجَّهوه جهة اليمن فقام يهرول ووجَّهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه نحو المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى جهة مكة فبرك وألقى جرَّانه إلى الأرض وجعل يعجُّ عَجًّا .

وفي رواية يونس بن بُكَيْر عن إسحاق : أن الفيل لما ربض جعلوا يُقسِّمون له بالله أنهم رآوه إلى اليمن فيحرك لهم أذنيه - كأنه يأخذ عليهم بذلك عهداً - فإذا أقسموا عليه قام يهرول فيردُّونه إلى مكة فيربض، فيحلفون له فيحرك أذنيه كالمؤكد عليهم القسم، ففعلوا ذلك مرارًا .

وفي معاني القرآن للزجاج : أن دوابهم لم تَسِرْ نحو البيت، فإذا عطفوها راجعين سارت، فوعظهم الله تعالى بأبلغ موعظة .

فأقاموا على قصد أن يخربوا البيت، فلم يزالوا يعالجون الفيل حتى غشيهم الليل .

وفي رواية يونس عن ابن إسحاق : أنهم استشعروا العذاب في تلك الليلة، لأنهم نظروا إلى النجوم كالحية إليهم تكاد تكلمهم من اقترابها منهم، فلما كان السحر أرسل الله الطير الأبايل من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طير منها ثلاثة أحجار يحملها، حجرٌ في منقاره وحجران في رجليه أمثال العدس والحمص، ثم جاءت حتى صفّت على رؤوسهم، فلما رأوها أشفقوا منها وسُقِطَ في أيديهم، فصاحت وألقت ما في أرجلها ومناكيرها، فما من حجر وقع على جنب رجل إلا خرج من الجنب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دُبْره ولا تصيب شيئاً إلا هشمته وإلا سقط ذلك الموضع . فكان أول ما رُئِيَ الجُدْرى والحَصْبَة، وبعث الله تعالى ريحاً شديدة فضربت بأرجلها فزادتها قوة .

وروى أبو نعيم عن عطاء بن يسار - رحمه الله تعالى - قال : حدثني من تكلم من كلِّ قائد الفيل وسائسه قال : إنها أخبراني خبر الفيل قالا : أقبلنا ومعنا فيل الملك الأكبر لم يسر به قط إلى جمع إلا هزمهم، فلما دنونا من الحرم جعلنا كلما نوجهه إلى الحرم يربض، فتارة نضربه فيهبط وتارة نضربه حتى نمل ثم نتركه . فلما بلغ المغمس ربض فلم يقم، فطلع العذاب، فقلت : نجا غيركما ؟ نعم ليس كلهم أصابهم العذاب .

ولَّى أبرهة ومن تبعه يريد بلاده، فكلما دخل أرضاً وقع منه عضو حتى انتهى إلى بلاد خثعم وليس عليه رأسه فمات .

وأقلت وزيره وطائره يتبعه حتى وصل إلى النجاشي فأخبره بما جرى للقوم، فلما فرغ رماه الطائر بحجره فمات بين يدي الملك .

وروى سعيد بن منصور عن عكرمة - رحمه الله تعالى : أن رؤوس هذه الطيور مثل رؤوس السباع لم ترق قبل ذلك ولا بعده، فأثرت في جلودهم فإنه لأول ما رئي الجدرى .

وروى أيضاً عن عبيد بن عمير - رحمه الله تعالى - أنها كالخطاطيف بُلُق .

وروى عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال :

دعا الله تعالى الطيرَ الأبايل فأعطاها حجارة سوداً عليه الطين، فلما حاذتهم صفت عليهم ثم رمتهم، فما بقى منهم أحد إلا أخذته الحكمة، فكان لا يحك إنسان منهم جلده إلا تساقط لحمه .

وروى الفرياني وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير - رحمه الله

تعالى :

أنها خرجت من قبَل البحر كأنها رجال الهند معها حجارة أمثال الإبل البوارك، وأصغرها مثل رؤوس الرجال، لا تريد أحداً منهم إلا أصابته ولا أصابته إلا قتلتها . والأبايل : المتتابعة .

وروى أبو نعيم عن نوفل بن معاوية الديلي^(١) قال : رأيت الحصا التي رُمى بها أصحاب الفيل، حصا مثل الحمص وأكبر من العدس حُمْرٌ مختمة كأنها جَزَع ظَفَار .

وروى أيضًا عن حكيم بن حزام^(٢) قال : كانت في المقدار بين الحمصة والعدسة حصا به نضح أحمر مُخْتَم كالجَزَع .

وروى ابن إسحاق والواقدي وأبو نعيم والبيهقي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : لقد رأيت قائدَ الفيل وسائسه أعميين مُقْعَدِينَ يستطعمان الناس .

وروى أبو نعيم وابن مردويه عن أبي صالح - رحمه الله تعالى - أنه رأى عند أم هانئ بنت أبي لهب من تلك الحجارة نحواً من قَفِيزٍ مَخْطُطَةٌ كأنها جَزَع ظَفَار مكتوب في الحجر اسمه واسم أبيه .

قال ابن إسحاق - رحمه الله تعالى : وليس كلهم أُصِيب ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي جاؤوا منه يسألون عن نُفَيْل بن حبيب ليدلّهم على الطريق، فقال نُفَيْل بن حبيب في ذلك :

أَيْنَ الْمَقَرُّ وَالْإِلَهُ الْغَالِبُ وَالْأَشْرُمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ

وخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل مَنْهَل .

وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يَسْقُطُ منه أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة أتبعتهَا مِدَّةٌ ودمٌ وقيحٌ حتَّى قَدِمُوا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتَّى انصدع قلبه .

ولما أصبح عبد المطلب أشرف ومعه أبو مسعود يقوده . فقال له أبو مسعود : انظر نحو البحر . قال : أرى طيراً بيضاً . فقال : ارمقها ببصرك أين قرارها ؟ قال :

(١) نوفل بن معاوية بن عروة (أو عمرو) الديلي الكناني : معمر، من الصحابة، له أحاديث، شهد بدرًا والخندق مع المشركين، وكان له ذكر ونكايه، ثم أسلم وشهد الفتح وحنينًا والطائف، ونزل المدينة، ومات بها، في خلافة معاوية، أو أيام يزيد . قيل : عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام . توفي سنة (٦٠هـ) . الأعلام (٥٥/٨) .

قد دارت فوق رؤوسنا . قال : هل تعرفها ؟ قال : لا . قال : ما هى بنجدية ولا
تهامية ولا يمانية ولا شامية وإنما لطير بأرضنا غير مؤنسة . قال : ما قدرها ؟ قال :
أمثال اليعاسيب فى مناقيرها الحصى كحصى الخذف وهى أبابيل يتبع بعضها بعضاً ،
أمام كل رفة منها طائر يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق ، حتى إذا
جازت عسكر القوم ركبت فوق رؤوسهم . فقال أبو مسعود : لأمر ما هو كائن .

ثم إن عبد المطلب أرسل ابناً له على فرس له سريع لينظر ما جرى للقوم ،
فذهب الفرس نحوهم ، فرآهم مشدخين جميعاً ، فرجع يرفع فرسه كاشفاً عن فخذه ،
فلما رأى ذلك عبد المطلب قال : إن ابنى لأفرس العرب وما كشف عن عورته إلا
بشيراً أو نذيراً . فلما دنا منهم قال له : ما وراءك ؟ قال : هلكوا جميعاً . فانحطاً من
الجبل ربوة أو ربوتين فلم يؤنسا أحداً ، فلما دنيا من المعسكر وجدا القوم خامدين ،
فعمد عبد المطلب وأخذ فأساً وحفر حتى أعمق فى الأرض وملاً من الذهب
والجوهر وحفر أيضاً لصاحبه حفيرة وملاًها كذلك ، وجلس كل واحد على حفرتة ،
ونادى عبد المطلب فى الناس فتراجعوا وأصابوا من ذلك ما ضاقوا به ذرعاً .

وازداد عبد المطلب عظماً لعدم خروجه من مكة .

وأرسل الله سبحانه وتعالى سيلاً عظيماً ، فاحتمل جثث الحبشة ، فألقاهم فى
البحر .

ولما أهلك الله تعالى الحبشة عظمت العرب قريشاً وقالوا : أهل الله تعالى ، قاتل
عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم ، وقالوا فى ذلك أشعاراً كثيرة ، منها قول عبد المطلب كما
ذكره البلاذرى ورجح الزبير أنها لمغيرة :

قُلْتُ وَالْأَشْرَمُ يَرْدِي خَيْلَهُ إِنَّ ذَا الْأَشْرَمِ غَرٌّ بِالْحَرَمِ
رَامَهُ تُبْعَ فِيمَنْ جَمَعْتَ حَيْرٌ وَالْحَى مِنْ آلِ قَدَمِ
فَانْتَنَى عَنْهُ وَفِي أَوْدَاجِهِ جَارِضٌ أَمْسَكَ مِنْهُ بِالْكَظَمِ
نَحْنُ آلُ اللَّهِ فِي بَلَدَتِهِ لَمْ نَزَلْ فِيهَا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِمَ

أشار عبد المطلب إلى قصة تُبْع، وخلاصتها - كما ذكر ابن إسحاق - رحمه الله تعالى - وغيره : أن تُبْعًا لما توجه راجعًا لبلاده أتاه نفر من هُذَيْل بن مدركة بن إلياس ابن مضر فقالوا له : أيها الملك، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى . قالوا : بيتٌ بمكة . وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك، لما عرفوا من هلاك من أراده بسوء وبغى عنده . فراح تُبْع وهو مُجْمِع لهدم البيت فبعث الله تعالى عليهم ريحًا فعقفت يديه ورجليه وشنجت جسده، فأرسل إلى من كان معه من يهود فقال : ويحكم ما هذا الذي أصابني ؟ فقالوا : أَحَدَثْتُ شَيْئًا . فقال : ما أَحَدَثْتُ ؟ فقالوا : حَدَّثْتَ نَفْسَكَ بِشَيْءٍ . قال : نعم . فذكر ما أجمع عليه من هدم البيت وإصابة ما فيه قالوا : ذاك بيت الله الحرام ومن أراده هلك . قال : ويحكم وما المخرج مما دخلت فيه ؟ قالوا : تَحَدَّثْتَ نَفْسَكَ أَنْ تَطُوفَ بِهِ وَتَكْسُوهُ وَتَعْظُمَهُ . فَحَدَّثْتَ نَفْسَكَ بِذَلِكَ فَأَطْلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ مَكَةَ فَطَافَهُ وَسَعَى بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرُوءَةِ وَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَأَقَامَ بِمَكَةَ سِتَّةَ أَيَّامٍ يَنْحَرُ فِيهَا لِلنَّاسِ، وَيَطْعَمُ أَهْلَهَا، وَيَسْقِيهِمُ الْعَسَلَ . وَأَرَى فِي الْمَنَامِ أَنْ يَكْسُوهُ فَكْسَاهُ الْخَصْفَ، ثُمَّ أَرَى أَنْ يَكْسُوهُ أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ فَكْسَاهُ الْمَعَافِرَ، ثُمَّ أَرَى أَنْ يَكْسُوهُ أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ فَكْسَاهُ الْمُلَاءَ وَالْوَصَائِلَ . وَذَكَرَ الْقِصَّةَ .

٣- إكرام الله تعالى لعبد المطلب جد النبي ﷺ :

أكرم الله تعالى جدَّ نبينا ﷺ قبل ولادته بأمور، ظهر فيه شرف عبد المطلب، ورعاية الله تعالى له، نحو : حفر ماء زمزم، وقصة أصحاب الفيل، وثبات عبد المطلب على الإيمان، ومناجاته لله تعالى بالانتصار على أبرهة الحبشي وجيشه،

ثم في نجاة والد النبي ﷺ عبد الله من نذر الذبح، وفي هذه القصص الثلاث التي ذكرناها حُكْمٌ إلهي لعلنا نصل إليها أو بعضها فيما يلي :

١ - إظهار المكانة الدينية لعبد المطلب أمام قريش والعرب جميعاً؛ ليعلموا أن الله تعالى خصهم دون العرب جميعاً بهذا الفضل، فليس من الصدفة بمكان أن يكون شرف حفر ماء زمزم، وظهور ثبات عبد المطلب أمام أبرهة، وانتشار قوله الإيماني : «إن للبيت رباً يحميه» وعدم خروجه من مكة وإنما حول الجبال المحيطة بالكعبة، والجيش الجرار على الأبواب، يتقدمه الفيل الكبير لهدم الكعبة. وبذلك تعرفت العرب وتنبهت إلى فضل الله تعالى على عبد المطلب وهذا غدا بمثابة الإعلان الكبير بين القبائل، وانتشار الخبر بينهم بصورة سريعة تلفت النظر إلى عبد المطلب وأن له شأنًا ومكانة دينية يجب الاعتراف بها .

٢ - تأكيد النبي ﷺ على أن عبد المطلب خير قومه؛ عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب قال : أتى أناس من الأنصار إلى النبي ﷺ فقالوا : إنا لنسمع من قومك حتى يقول القائل منهم : إنما مثل محمد مثل نخلة في كباء^(١)، فقال رسول الله ﷺ : «أيها الناس، من أنا؟»، قالوا : أنت رسول الله ﷺ، قال : «أنا محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب»، قال (أى الراوى) : فما سمعناه قط ينتمى قبلها، «إلا أن الله عز وجل خلق خلقه، فجعلنى من خير خلقه، ثم فرقهم فرقتين، فجعلنى من خير الفرقتين، ثم جعلهم قبائل، فجعلنى من خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً، فجعلنى من خيرهم بيتاً، وأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً». رواه الترمذي، وأحمد . وقال الهيثمى في المجمع (٢١٥ / ٨) : رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح^(٢) .

وإن انتساب النبي ﷺ في غزوة حنين إلى جده عندما انهزم بعض المسلمين، فقال بأعلى صوته :

(١) الكباء : الكناسة .

(٢) انظر : صحيح السيرة لإبراهيم العلى (ص ٢١) .

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ومن حكمة ذلك الانتساب : كأن النبي ﷺ يقول : كما ثبت جدى عبد المطلب أمام أبرهة، ومعه عدد قليل، ثابت أمامكم، وأنا النبي بلا كذب ولا افتراء، ولا يمكن لى الانهزام أو الخسران فى أى معركة كانت. فكان نصر الله له ﷺ بالإضافة لكون جده من أهل الفترة^(١).

الأساس الثالث : أخبار زواج والديه، ثم وفاة والده قبل ولادته ﷺ وميراثه من أبيه :

١- زواج عبد الله والد النبي ﷺ بآمنة بنت وهب أم النبي ﷺ وسببه :

روى ابن سعد، وابن البرقى والطبرانى والحاكم وأبو نعيم عن العباس بن عبد المطلب عن أبيه قال : قدمنا اليمن فى رحلة الشتاء فنزلت على حَبْرٍ من اليهود، فقال لى رجل من أهل الزبور، يعنى الكتاب : ممن الرجل؟ قلت : من قرش، قال : من أيهم؟ قلت : من بنى هاشم، قال : أتأذن لى أن أنظر إلى بعضك؟ قلت : نعم، ما لم يكن عورة، قال : ففتح إحدى منخري فنظر فيه، ثم نظر فى الآخر فقال : أشهد أن فى إحدى يديك مُلكاً وفى الأخرى نبوة، وإنا نجد ذلك فى بنى زُهرة فكيف ذلك؟ قلت : لا أدري، قال : هل لك من شاعة (أى : زوجة سميت بذلك لمتابعتها زوجها وشيعته) قلت : وما الشاعة؟ قال : الزوجة، قلت : أما اليوم فلا، فقال : إذا رجعت فتزوج منهم، فلما رجع عبد المطلب إلى مكة تزوج هالة بنت أُهيب بن عبد مناف، وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب، فولدت له رسول الله ﷺ فقالت قرش : فَلَاحَ عبد الله على أبيه (أى : ظفر بما طلب)^(٢).

(١) أهل الفترة : هم الذين عاشوا بين بعثة سيدنا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ولم يبعث لهم رسول، واعتقاد أهل السنة والجماعة بنجاتهم من النار لقوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا » [الإسراء]. وقيل : يُمْتَحِنُونَ، والله أعلم.

(٢) انظر : سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للصالحى (١/ ٣٢٥)، قال الذهبى فى التلخيص : يعقوب وشيخه ضعيفان، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٣١) : « رواه الطبرانى وفيه عبد العزيز بن عمران وهو متروك ». والخبر فى دلائل البيهقى (١/ ١٠٧) ودلائل النبوة لأبى نعيم (١/ ١٦٢).

٢- وفاة عبد الله والد النبي ﷺ قبل ولادته ^(١) :

قال ابن إسحاق - رحمه الله تعالى : ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أن توفي، وأم رسول الله ﷺ حامل به .

هذا ما جزم به ابن إسحاق ورجحه الواقدي وابن سعد والبلاذري، وصححه الذهبي، وقال ابن كثير : إنه المشهور، وقال ابن الجوزي : إنه الذي عليه معظم أهل السير، ورواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي .

أما تفاصيل وفاته فروى ابن سعد في الطبقات (١/ ٩٩) : أن عبد الله خرج إلى الشام إلى غزة في عير من عيرات قريش يحملون تجارات، ففرغوا من تجارتهم، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة وعبد الله يومئذ مريض، فقال : أتخلف عند أخوالي بني عدي ابن النجار، فأقام عندهم مريضاً شهراً، ومضى أصحابه فقدموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن ابنه فقالوا : خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار مريضاً، فبعث عبد المطلب أكبر ولده الحارث، فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة فرجع؛ فأخبره فوجد عليه عبد المطلب وعماته وإخوته وأخواته وجداً شديداً، ورسول الله ﷺ حمل، ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفي خمس وعشرون سنة .

قال الواقدي : «وهذا أثبت الأقاويل في وفاة عبد الله وسنه» ^(٢) .

٣- ميراث النبي ﷺ من أبيه :

روى ابن سعد في الطبقات (١/ ١٠٠) عن محمد بن عمر بن واقد الأسلمي قال : ترك عبد الله بن عبد المطلب أم أيمن، وخمسة أجمالٍ أوراك، يعنى : تأكل الأراك، وقطعة غنم، فورث ذلك رسول الله ﷺ . وروى أيضاً في (ج ١/ ٤٨٥) عن عبد المجيد بن سهيل قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة في الهجرة بسيفٍ كان لأبى ماثور، يعنى : أباه ^(٣) .

(١) انظر بتوسع : سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٣١)، والجامع في السيرة النبوية (١/ ١٣٠) .

(٢) انظر : جامع السيرة النبوية (١/ ١٣١) .

الأساس الرابع : أخبار حملته ﷺ في بطن أمه وولادته ﷺ :

١- النور الذي رآته آمنة في الحمل أو الولادة أو في كليهما :

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته، وسأنبئكم بتأويل ذلك : دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم» رواه أحمد والطبراني في الكبير، وقال الهيثمي في المجمع (٢٢٣/٨) : رواه أحمد والطبراني نحوه، والبزار، وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد، وثقه ابن حبان .

وفي رواية الحاكم : وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام، ثم تلا : ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿﴾ [الأحزاب] قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي .

وروى الحاكم، وصححه البيهقي عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، قال ﷺ : «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بُصرى من أرض الشام» .

فهذا الحديث يدل على رؤية آمنة للنور عند حملها للنبي ﷺ، والأول يدل على رؤيتها للنور عند الولادة، وما ذلك على الله بعزيز .

٢- حادثة الفيل وحفظ الله تعالى لبيته الكريم وتكريماً بمولد الحبيب المصطفى ﷺ وافتخار الرسول ﷺ بيوم مولده واختصاص يوم مولده بالفضائل :

ولد رسول الله ﷺ عام الفيل في ربيع الأول يوم الاثنين، والأكثر على أنه ليلة الثاني عشر منه .

روى الإمام أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي قتادة ؓ أن رسول الله ﷺ سئل عن يوم الاثنين، فقال : «ذاك يومٌ ولدت فيه أو قال : أنزل على فيه» .

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه بسند صحيح عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهما أنهما قالوا: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات». هذا هو المشهور عند الجمهور، والله أعلم .

قال بعض أهل المعاني : كان مولده ﷺ في فصل الربيع، وهو أعدل الفصول، ليله ونهاره معتدلان بين الحر والبرد، ونسيمه معتدل بين اليوسفة والرطوبة، وشمسه معتدلة في العلو والهبوط، وقمره معتدل في أول درجة من الليالي البيض، وينعقد في سلك هذا النظام : ما هيأ الله تعالى له ﷺ من أسماء مربيّه، ففي الوالدة والقبلة الأمن والشفاء، وفي اسم الحاضنة البركة والنماء وفي مرضعته ﷺ الآتي ذكرهما الثواب والحلم^(١) .

فيوم الاثنين يوم مولد الرسول ﷺ، ويوم بُعث فيه، أنزل عليه القرآن في غار حراء: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق]، وذاك يوم ترفع فيه الأعمال إلى الله تعالى (بالإضافة ليوم الخميس)، وكان رسول الله ﷺ يصومه ويقول : «أحب أن يرفع عملي وأنا صائم» . فهذه الفضائل تجعل أهميته بالمكان المرموق اللائق به، وقد خص الله تعالى نبينا محمداً ﷺ بأن أقسم بحياته، فقال سبحانه : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر] .

(١) انظر بتوسع: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١/ ٣٦٢) الباب : الثالث عشر في أقوال العلماء في عمل المولد الشريف، واجتماع الناس له، وما يُحمد من ذلك، وما يُذم.

والحياة الجسدية تبدأ من لحظة الولادة، وما أسعدها من لحظة تشرفت بها الدنيا كلها بمولده ﷺ، أفيعقل أن تمر لحظة مولده ﷺ على المسلم دون ابتهاج وفرح يورثها أبناءه؟!

أفيجوز للمسلم أن يفرح بمولد فلان وفلان ولا يفرح بمولد رسول الله ﷺ الذي أصبحت السماء فيه شهاباً ثاقباً ترجم كل شيطان رجيم، يريد أن يسترق السمع من الملاء الأعلى؟!

وإذا كان رسول الله ﷺ قد فرح بيوم مولده بعد مبعثه، وذلك بأن عَقَّ عن نفسه - كما رواه أنس رضي الله عنه - بسند صحيح، وأخرجه البيهقي - وكان جده قد عَقَّ عنه، فأعادها الرسول ﷺ مرة ثانية، ومعلوم أن العقبة وليمة يُدعى إليها كل الناس لإظهار الشكر لله تعالى، فإذا كان رسول الله ﷺ قد عمل وليمة العقبة بذكرى مولده، أفلا يكون مدعاة للاقتداء به ﷺ في عمل الولائم بذكرى مولده، وإظهار الفرحه والسرور؟! نعم إن إظهار الفرحه والسرور بيوم مولده، وفي كل يوم، من الفرائض، ومن أمهات وجوب الاعتقاد بتوقيره، وتعظيمه ﷺ .

وإذا كان يُخفف عن أبي لهب الكافر كل يوم اثنين لفرحه بمولد النبي ﷺ، وعتقه لثوبية التي بشرته بولادته - كما رواه البخاري عن العباس رضي الله عنه - أفلا يفرح الأطفال والكبار والذكور والإناث بيوم مولده ويبتهجون به، ويكون ذلك سبباً في تخفيف العذاب عنهم يوم القيامة؟!

وإن الله تعالى أمر بالتذكير بأيام الله تعالى، وهى الأيام التى تميزت بخاصية معينة، كيوم الفرقان، ويوم حنين، ويوم الإسراء، وغيرها من أيام الرسل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقال سبحانه: ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ ﴾ [إبراهيم: ٥] .

فالتذكير واجب، وإذا سَمَّاهُ البعض بعيد المولد، فهذا خطأ فى التسمية؛ لأن المسلم له عيدان : عيد الفطر وعيد الأضحى - كما أخبر النبي ﷺ - فتسميته بعيد المولد مجازاً، والقصد منه بذكرى المولد تذكير الأب أولاده بسيرة رسول الله ﷺ

وتذكير الخطباء والدعاة والعلماء الأمة الإسلامية إلى أهمية أحداث سيرة الرسول ﷺ، بدءاً من مولده الشريف إلى ارتفاع روحه إلى الملاء الأعلى . وقد مر معنا أن الصحابة - رضوان الله عليهم - ورثوا أبناءهم سيرة الرسول الله ﷺ كلها، وهم بدورهم ورثوها غيرهم وهكذا وصلت إلينا .

٣- مكان ولادة النبي ﷺ وحصول الأنوار والبركات فيه :

روى الطبري (١٥٦/٢) عن ابن إسحاق قال : وقيل : إنه وُلد ﷺ في الدار التي تُعرف بدار ابن يوسف، وقيل : إن رسول الله ﷺ كان وهبها لعقيل بن أبي طالب، فلم تزل في يد عقيل حتى توفي، فباعها ولده من محمد بن يوسف - أخى الحجاج بن يوسف - فبنى داره التي يُقال لها دار ابن يوسف، وأدخل ذلك البيت في الدار، حتى أخرجته الخيزرانُ (أم الخليفة العباسي هارون الرشيد) فجعلته مسجداً يصلّي فيه .

وقال الحاكم في المستدرك (٦٠٢/١) : ولد رسول الله ﷺ في الدار التي فيها الزقاق المعروف بزقاق المدكل بمكة، وقد صليتُ فيها، وهى الدار التي كانت بعد مهاجرة رسول الله ﷺ في يد عقيل بن أبي طالب، ثم في أيدي ولده بعده .

وأورد الأزرقي في «أخبار مكة» (١٩٩/٢) عن سليمان بن أبى مَرْحَب مولى بنى خثيم، قال : حدثني ناس كانوا يسكنون ذلك البيت قبل أن تشرعه الخيزرانُ من الدار، ثم انتقلوا عنه حين جعل مسجداً، قالوا : لا والله، ما أصابتنا فيه جائحةٌ ولا حاجة، فأخرجنا منه فاشتدَّ الزمانُ علينا^(١) .

وعن أبى العَجَفَاء - رحمه الله تعالى - مرسلًا قال : قال رسول الله ﷺ : «رأت أُمى حين وضعتني سطع منها نور، فضاءت له قصور بُصرى» . رواه ابن سعد، قال الصالحى : ورجاله ثقات .

(١) انظر : الجامع في السيرة النبوية (١/١٣٨) .

وروى الإمام أحمد وابن سعد بسند حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه قلت : يا رسول الله، ما كان بدء أمرك؟ قال : «دعوة أبي إبراهيم، وبُشرى عيسى ابن مريم، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» .

٤ - أخبار ولادة الحبيب المصطفى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

أ - روى ابن سعد بسند ثقات ^(١) عن إسحاق بن أبي طلحة مرسلاً - رحمه الله تعالى : أن آمنة قالت : وضعته نظيفاً، ما ولدته إلا كما يولد السَّخْل ما به قدر، ووقع إلى الأرض وهو جالس على الأرض بيديه .

ب - وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ كَرَّمَنِي عَلَى رَبِّي أَنَّى وَلِدْتُ مَخْتُونًا، وَلَمْ يَر أَحَدٌ سَوَاتِي» . رواه الطبراني وأبو نعيم وابن عساكر من طرق، قال في الزهر : سنده جيد ... اهـ، وصححه الحافظ ضياء الدين المقدسي، وروى من حديث العباس بن عبد المطلب رواه ابن سعد، وحسن مغلطاي سنده في كتابه دلائل النبوة، وانظر مناقشة الأسانيد في سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحى (١/٣٤٧) .

ج - انفلاق البرمة حين وضع صلى الله عليه وسلم تحتها :

روى ابن سعد بسند رجاله ثقات ^(٢) أثبات عن عكرمة - رحمه الله تعالى - مرسلاً: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وضعته أمه وضعته تحت بُرْمَةٍ، فانفلقت عنه، قالت : فنظرتُ إليه فإذا هو قد شق بصره ينظر إلى السماء .

وروى البيهقي عن أبي الحسن التنوخي - رحمه الله تعالى - قال : كان المولود إذا وُلِدَ في قريش دفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح فكفأن عليه بُرْمَةٌ (إناء من الحجارة)، فلما أصبحن أَتَيْنَ فوجدت البرمة قد انفلقت عنه باثنتين، فوجدته مفتوح

(١) قاله الصالحى في سبل الهدى والرشاد (١/٣٤٨) .

(٢) سبل الهدى والرشاد (١/٣٤٦) .

العينين، شاخصاً بصره إلى السماء فأتاها عبد المطلب فقلن : ما رأينا مولوداً مثله، ووجدناه قد انفلقت عنه البرمة، ووجدناه مفتوحاً عينيه شاخصاً بصره إلى السماء، فقال : احفظنه، فإنى أرجو أن يصيب خيراً .

د- فرح جده عبد المطلب بمولده ﷺ وتسميته له محمداً :

قال ابن إسحاق والواقدي وغيرهما ^(١) : « لما وضعت أمنة سيدنا رسول الله ﷺ أرسلت إلى جدّه عبد المطلب : أنه قد وُلِدَ لكَ غلام، فأتته، فانظر إليه، فأتاه، ونظر إليه، وحدثته بما رأت حين حملت به، وما قيل لها، وما أمرت به أن تسميه، فيزعمون أن عبد المطلب أخذه فدخل به الكعبة، فقام يدعو الله ويشكره على ما أعطاه، ثم خرج به ﷺ إلى أمه » .

وروى أبو عمر وأبو القاسم بن عساكر من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لما ولد رسول الله ﷺ عَقَّ عنه جده بكبش وسماه محمداً، ف قيل له : يا أبا الحارث، ما حملك على أن تسميه محمداً ولم تسمه باسم آبائه؟ قال : أردت أن يحمده الله في السماء، ويحمده الناس في الأرض » ^(٢) .

هـ- أسماء النبي ﷺ :

روى البخاري عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لي خمسة أسماء : أنا محمدٌ، وأحمدٌ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب » . ورواه مالك في « الموطأ » .

وروى مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يُسمى لنا نفسه أسماء فقال : « أنا محمدٌ، وأحمدٌ، والمُقَفَّى، والحاشِرُّ، ونبي التوبة، ونبي الرحمة » . والمُقَفَّى : أي : آخر الأنبياء، فإذا قفَى فلا نبي بعده ^(٣) .

(١) سبل الهدى والرشاد .

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٦٨) .

(٣) الجامع في السيرة النبوية (١/ ١٤٤) .

وروى الحاكم، وقال : صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي (٣/ ٤١٥)، عن عوف بن مالك الأشجعي قال : انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة يهود، فذكر الحديث، وفيه : قال النبي ﷺ : «أبيتم؛ فوالله، لأنا الخاشر، وأن العاقب، وأنا النبي المصطفى» .

ومن أسمائه ﷺ التي سماه الله تعالى بها في القرآن :

محمد وأحمد، وطه، ويس، وعبد الله، ورسول، ونبي، وأمّي، وشاهد، ومبشر، ونذير، وداع إلى الله، وسراج منير، ورؤوف رحيم، ونذير مبين، ومذكّر، وعبد، وشهيد، ومصدق، ونور، وغيرها كثير ﷺ تسليماً كثيراً .

الأساس الخامس : مرضعات النبي ﷺ ^(١) وأخباره معهن :

١- أسماء المرضعات :

الأولى : أمه آمنة بنت وهب، أرضعته سبعة أيام.

الثانية : ثُوَيْبَةُ مَولَاةُ أَبِي لَهَبٍ، كان أبو لهب أعتقها عندما أخبرته بولادة النبي ﷺ، فأرضعت النبي ﷺ بلبن ابنها مَسْرُوح .

وروى البخاري قول النبي ﷺ : «أرضعتنى وأبا سلمة ثُوَيْبَةُ» . وهى أرضعت حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ قبله، كما رواه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٠٨) وأرضعت عبد الله بن جحش كما ذكره السهيلي (١/ ١٨٦) .

الثالثة : امرأة من بنى سعد غير حليلة، روى ابن سعد (١/ ٣٧٥) عن ابن أبي مليكة - رحمه الله تعالى : كان حمزة بن عبد المطلب رضيع رسول الله ﷺ أرضعتها امرأة من العرب، كان حمزة مسترضعاً لها عند قوم من بنى سعد بن بكر، وكانت أم حمزة قد أرضعت رسول الله ﷺ يوماً وهو عند أمه حليلة .

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١/ ٣٧٥) والجامع في السيرة النبوية (١/ ١٤٨) .

الرابعة : أم أيمن بركة، ذكرها القرطبي، والمشهور أنها من الخواضن لا من المراضع .

الخامسة والسادسة والسابعة : قال أبو عمر - رحمه الله تعالى : إنه ﷺ مَرَّبَهُ عَلَى نِسْوَةٍ ثَلَاثٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، فَأَخْرَجْنِ ثُدَيْهِنَّ فَوَضَعْنَهَا فِيهِ فَدَرَّتْ عَلَيْهِ، وَرَضِعَ مِنْهُنَّ.

الثامنة : أم فروة، ذكرها المُستَغْفِرِيُّ، ثُمَّ رَوَى عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ أُمِّ (١) فُرُوءَ ظَنَرَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ : ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ وَهُوَ غَرَابُطَةٌ﴾ [الكافرون]، فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشَّرْكِ» .

التاسعة : حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية . قال النووي - رحمه الله : كنية حليلة أم كبشة .

٢ - الآيات الباهرات التي حصلت للنبي ﷺ مع مرضعته حليلة السعدية (٢) وحادثة شق الصدر الأولى واستخراج حظ الشيطان من قلبه الشريف .

روى ابن إسحاق وابن راهويه وأبو يعلى والطبراني وابن حبان ﷺ عن عبد الله ابن جعفر ﷺ قال : حدثتني حليلة .

والبيهقي وابن عساكر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وفي سنده من تُكَلِّمُ فِيهِ، لَكِنْ لِأَكْثَرِهِ شَاهِدٌ قَوِي .

والبيهقي عن الزُّهْرِيِّ وَأَبُو يَعْلَى وَأَبِي نُعَيْمٍ عَنْ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ مَرْفُوعاً مُخْتَصِراً، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالدَّارِمِيُّ عَنْ عَتَبَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ مَرْفُوعاً مُخْتَصِراً، وَأَبُو نُعَيْمٍ عَنْ بُرَيْدَةَ .

وابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر عن يحيى بن يزيد السعدي، وابن سعد عن زيد بن أسلم ﷺ أَنَّ حَلِيلَةَ قَالَتْ :

(١) صحيح . ابن حجر في (الإصابة) : أنه أبو فروة . وهو راوى الحديث .
(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١/ ٣٨٦) وانظر : صحيح السيرة النبوية (ص ٣٨)، والجامع في السيرة النبوية (١/ ١٦٠-١٦٨) .

قدمت على أتان قمرء قد أزمّت بالركب حتى شقّ ذلك عليهم ضعفاً وعَجْفاً، ومعى صبي لنا، وشارف لنا، والله ما تَبِضُّ بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع، من صبينا ذاك، لا يجد في شارفنا ما يكفيه، ولا في ثديي ما يُغنيه، فقدمنا مكة .

قالت : فوالله، ما علمتُ امرأة منا إلا وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها بأنه يتيم، وذلك أنا إنما كنّا نرجو المعروف من أبى الصبي، فكنا نقول : يتيم ما عسى تصنع أمّه وجَدّه؟! فكنا نكرهه لذلك، فوالله ما بقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما لم أجد غيره قلت لزوجي : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع؛ لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلاخذنه فذهبت فأخذته فجئت به رحلى فقالت آمنة: يا حليلة قيل لى ثلاث ليال : استعرضى ابنك فى بنى سعد بن بكر، ثم فى آل أبى ذؤيب، قالت حليلة : فإن زوجى أبو ذؤيب، وإنها أخبرتها بما رأت فى حملة ﷺ وحين وضعته .

قالت حليلة : فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء الله من لبن، فشرب حتى روى؛ ثم شرب أخوه حتى روى؛ ثم ناما .

وقام زوجى إلى شارفنا، فإذا إنها لحافل؛ فحلب فشرب وشربت حتى انتهينا، وبتنا بخير ليلة .

فقال صاحبى : تعلمى يا حليلة، والله إني لأراك قد أخذت نَسَمَةً مباركة، ألم ترى إلى ما بتنا فيه الليلة من الخير والبركة حين أخذناه؟! قلت : والله، إني لأرجو ذلك .

وفى حديث إسحاق بن يحيى عند ابن سعد : أن اليهود مرؤوا على حليلة، فقالت : ألا تحدثوننى عن ابنى هذا، فإنى حملته كذا، ووضعته كذا، ورأيت كذا، كما وصفته أمه، فقال بعضهم لبعض : اقتلوه، فقالوا : أيتيم هو؟ قالت : لا، هذا أبوه وأنا أمه، فقالوا : لو كان يتيمًا قتلناه .

قالت : ثم رجعنا وركبت أتانى، وحملته عليها معى، فوالله لقد قطعت أتانى

بالركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى إن صواحبى ليقلن لى : يا بنت أبى ذؤيب ويحك! اربعى علينا، أهذه أتائك التى خرجت عليها معنا؟ فأقول : نعم، والله إنها هى، فيقلن : والله إن لها لشأناً .

وفى حديث الزهرى: أن حليلة نزلت به ﷺ سوق عكاظ فرآه كاهن من الكهان، فقال : يا أهل سوق عكاظ، اقتلوا هذا الغلام فإن له ملكاً . فزاغت به حليلة، فأنجاه الله تعالى منهم .

ثم قدمنا أرض بنى سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله تعالى أجذبَ منها، فكانت غنمى تسرح ثم تروح شباعاً لبناء، فنحلب ونشرب، وما يجلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها فى ضرع، إن كان الحاضر من قومنا ليقولون لرعاتهم : ويحكم ! انظروا حيث تسرح غنم حليلة فاسرحوا معهم ، فيسرحون مع غنمى حيث تسرح، فتروح أغنامهم جياً ما فيها قطرة لبن، وتروح غنمى شباعاً لبناً .

قالت : ولما دخلتُ به إلى منزلى لم يبق منزل من منازل بنى سعد إلا شممنا منه ريح المسك، وألقيت محبته ﷺ فى قلوب الناس ، حتى إن أحدهم كان إذا نزل به أذى فى جسده أخذ كفه ﷺ فيضعها على موضع الأذى، فيبرأ سريعاً بإذن الله تعالى، وكانوا إذا اعتل لهم بعيرٌ أو شاةٌ فعلوا ذلك .

وروى أبو نعيم عن بعض من كان يرعى غنم حليلة : أنهم كانوا يرون غنمها ما ترفع برؤوسها، وتُرى الخُضر فى أفواهها وأبعارها، وما تزيد غنمنا على أن تربض ما تجد عوداً تأكله .

قالت حليلة : فلم يزل الله تعالى يرينا البركة ونتعرفها حتى بلغ ﷺ ستين، فكان يشبّ شباباً لا يشبه الغلمان .

وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما كان أول كلام تكلم به ﷺ حين فطمته : الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً .

وروى أبو نعيم عن بعض رعاة حليلة قالوا : مكث رسول الله ﷺ سنتين حين فطم وكأنه ابن أربع سنين، فقدموا به على أمه زائرين لها، وهم أحصرص شيء على رده مكانه؛ لما رأوا من عظم بركته، فلما كانوا بوادي السرر لقيت نفراً من الحبشة فرافقتهم، فسألوها فنظروا إلى رسول الله ﷺ نظراً شديداً، ثم نظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه وإلى حمرة في عينيه فقالوا : هل يشتكى عينه ؟ قالت : لا، ولكن هذه الحمرة لا تفارقه، قالوا : والله نبي . ا.هـ .

قالت : فقدمنا به إلى أمه فلما رآته قلنا لها : اتركي ابنتنا عندنا هذه السنة، فإننا نخاف عليه وباء مكة، فوالله ما زلنا بها حتى قالت : نعم، فسرحتة معنا .

وعن أبي نعيم عن بعض رعاة حليلة : أنها مرت بذى المجاز وهى راجعة برسول الله ﷺ وبه عراف يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ وإلى الحمرة بين عينيه وإلى خاتم النبوة صاح : يا معشر العرب، اقتلوا هذا الصبي فليقتل أهل دينكم وليكسرن أصنامكم، وليظهرن أمره عليكم، فانسلت به حليلة .

زاد ابن سعد : فجعل اهتلى يصيح : يا هذيل ! وأهله، إن هذا لينتظر أمراً من السماء، وجعل يُغري بالنبي ﷺ، فلم ينشب أن دله فذهب عقله حتى مات كافراً .

فأقمنا شهرين أو ثلاثة، وكان ﷺ يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم .

وفي حديث الزهري عند ابن سعد قال : كانت حليلة لا تدع رسول الله ﷺ يذهب مكاناً بعيداً، فغفلت عنه يوماً فخرج مع أخته الشيماء في الظهرية، فخرجت حليلة تطلبه حتى وجدته مع أخته، فقالت : في هذا الحر ؟ فقالت أخته : يا أمه، ما وجد أخى حرّاً، رأيت غمامة تُظلل عليه إذا وقفَ وقفتُ، وإذا سارَ سارتُ حتى انتهى إلى هذا الموضع، قالت : حقاً يا بنية ؟ قالت : إى والله . اهـ .

فقال لى يوماً : يا أماه، ما لى لا أرى إخوتى بالنهار؟ قالت : يرعون بهماً غنماً لنا فيرووحون من الليل إلى الليل، فقال : ابعثنى معهم، فكان ﷺ يخرج مسروراً ويعود

مسروراً، فلما كان يوماً من ذلك خرج، فلما انتصف النهار إذ جاءنا أخوه يشتدّ فقال: يا أبت، ويا أمه، الحقاً أخى محمداً، فما تلحقانه إلا ميتاً، قلت: وما قصته؟ قال: بينا نحن قيام إذ أتانا رجل فاخطفه من أوساطنا وعلا به ذروة جبل، ونحن ننظر إليه؛ حتى شق من صدره إلى عانته - وعند ابن إسحاق: ورَجُلان عليها ثياب بيض فشَقَّا بطنه فهما يسوطانه. اهـ - وما أدري ما فعل فأقبلت أنا وأبوه نسعى سعياً، فإذا به قاعد على ذروة الجبل شاخصاً يبصره إلى السماء فنجده مُنتقعاً لونه، فأكبَّبتُ عليه، وقبَّلت بين عينيه، وقلت: فدتك نفسى ما دهاك؟ قال: خيراً يا أماه، بينا أنا الساعة قائم إذ أتاني رهطٌ ثلاث بيد أحدهم إبريق فضة، وفي يد الثانى طست من زمردة خضراء ملآن ثلجاً، فأخذوني وانطلقوا بى إلى ذروة الجبل، فأضجعونى إضجاعاً لطيفاً، ثم شق أحدهم من صدرى إلى عانتى وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك حساً ولا ألماً، ثم أدخل يده فى جوفى، فأخرج أحشاء بطنى فغسلها بذلك الثلج، فأنعم غسلها ثم أعادها. كذا فى حديث ابن عباس عند البيهقى، وشَدَّاد بن أوس عند أبى يعلى، وأبى نُعيم.

وفى صحيح مسلم: فأناه جبريل فأخذه فصرعه فشَقَّ عن قلبه واستخرج القلب، ثم شق القلب فاستخرج منه علقة سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله، ثم حشاه بشيء كان معه وردّه مكانه ثم ختمه بخاتم النبوة من نور، فأنا الساعة أجد بَرْدَ الخاتم فى عروقى ومفاصلى. وقام الثالث فقال: تَنَحَّيا فقد أنجزتما ما أمركما الله تعالى به، ثم دنا منى فأمرّ يده من مَفْرَق صدرى إلى منتهى عانتى، فالتام الشق بإذن الله تعالى.

وفى حديث عبد الله بن عُتبة: فأقبل إلى طائران أبيضان كأنهما نَسْران فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم. فأقبلا يبتدرانى فأخذانى فبطحانى لِلْقَفَا فشَقَّاه، فأخرجا منه علقتين سوداوين. فقال أحدهما لصاحبه: ايتنى بهاء ثلج، فغسلنا به جوفى. ثم قال: ايتنى بهاء بَرْد فغسلنا به قلبى، ثم قال: ايتنى بالسكينة

فَذَرَاهَا فِي قَلْبِي، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَأَمْنَضَنِي إِنْهَاضاً لَطِيفاً، ثُمَّ قَالَ الْأَوَّلُ : زَنَّهُ بَعْشَرَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ، فَوَزَنُونِي بِهِمْ ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرَ إِلَى الْأَلْفِ فَوْقِي أَشْفَقُ أَنْ يُخَرَّ عَلَى بَعْضِهِمْ فَرَجَحْتَهُمْ، فَقَالَ : دَعُوهُ فَلَوْ وَزَنْتُمُوهُ بِأُمَّتِهِ كُلِّهَا لَرَجَحَهُمْ، ثُمَّ ضَمُّونِي إِلَى صَدُورِهِمْ، وَقَبَّلُوا رَأْسِي، وَمَا بَيْنَ عَيْنَيَّ، ثُمَّ قَالُوا : يَا حَبِيبَ اللَّهِ، لَمْ تُرَعْ إِنَّكَ لَوْ تَدْرِي مَا يَرَادُ بِكَ مِنَ الْخَيْرِ لَقَرَّتْ عَيْنَاكَ . قَالَتْ حَلِيمَةُ : فَأَتَيْتُ بِهِ مَنَازِلَ بَنِي سَعْدِ فَقَالَ النَّاسُ : أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الْكَاهِنِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَيْهِ وَيَدَاوِيهِ، فَقَالَ : مَا بِيَ شَيْءٌ مِمَّا تَذْكُرُونَ، إِنِّي أَرَى نَفْسِي سَلِيمَةً، وَفُؤَادِي صَاحِحًا، فَقَالَ النَّاسُ : أَصَابَهُ لَمْ يَمْ أَوْ طَائِفٌ مِنَ الْجَنِّ، فَغَلَبُونِي عَلَى أَمْرِي، فَاَنْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى الْكَاهِنِ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، فَقَالَ : دَعْنِي أَنَا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَإِنَّ الْغَلَامَ أَبْصَرَ بِأَمْرِهِ مِنْكُمْ، تَكَلَّمْ يَا غَلَامُ، فَقَصَّ عَلَيْهِ، فَوَثَبَ الْكَاهِنُ قَائِماً عَلَى قَدَمَيْهِ وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ، اقْتُلُوا هَذَا الْغَلَامَ، وَاقْتُلُونِي مَعَهُ، فَإِنَّكُمْ لَتُنَّ تَرَكْتُمُوهُ؛ وَأَدْرَكَ مَدَارِكَ الرِّجَالِ لِيُسْفِهَنَّ أَحْلَامَكُمْ وَلِيَكْذِبَنَّ أَرْبَابَكُمْ، وَلِيَدْعُونَكُمْ إِلَى رَبِّ لَا تَعْرِفُونَهُ، وَدِينُ تَنْكُرُونَهُ، قَالَتْ : فَلَمَّا سَمِعْتُ مَقَالَتهِ انْتَزَعْتُهُ مِنْ يَدِهِ، وَقُلْتُ : لَأَنْتِ أَعْتَهُ مِنْهُ وَأَجَنَّ، وَلَوْ عَلِمْتَ هَذَا مِنْ قَوْلِكَ مَا أَتَيْتُكَ بِهِ، أَطْلُبُ لِنَفْسِكَ مَنْ يَقْتُلُكَ، فَإِنَّا لَا نَقْتُلُ مُحَمَّدًا . فَأَتَيْتُ بِهِ مَنْزِلِي فَمَا أَتَيْتُ مَنْزِلاً مِنْ مَنَازِلِ بَنِي سَعْدِ إِلَّا وَقَدْ شَمَمْنَا مِنْهُ رِيحَ الْمِسْكِ . فَقَالَ النَّاسُ : يَا حَلِيمَةُ ! رَدِيهِ إِلَى جَدِّهِ؛ وَاخْرُجِي مِنْ أَمَانَتِكَ، وَقَالَ زَوْجِي : أَرَى أَنْ نَرُدَّهُ عَلَى أُمِّهِ لِنُعَاجِلَهُ فَوَاللَّهِ إِنْ أَصَابَهُ مَا أَصَابَهُ إِلَّا حَسِداً مِنْ آلِ فُلَانٍ؛ لَمَا يَرُونَ مِنْ عَظِيمِ بَرَكَتِهِ يَا حَلِيمَةُ، أَخَذْنَاهُ وَلَنَا أَعْنَزُ عَجَافٌ فَهْنِ الْيَوْمِ ثَلَاثِائَةَ .

قَالَتْ : فَعَزِمْتُ عَلَى ذَلِكَ، فَسَمِعْتُ مَنَادِيًّا يَنَادِي : هَيْئاً لَكَ يَا بَطْحَاءُ مَكَّةَ؟ الْيَوْمَ يُرَدُّ إِلَيْكَ النُّورُ وَالِدِينَ وَالْبَهَاءُ وَالْكَهَالُ، فَقَدْ أَمِنْتَ أَنْ تُخْلَلَ أَوْ تُخْرَى أَبَدَ الْأَبَدِينَ .

وَرَوَى ابْنُ سَعْدٍ (١/١١٢) : وَلَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعَ سِنِينَ كَانَ يَغْدُو مَعَ أَخِيهِ وَأَخْتِهِ فِي الْبَهْمِ قَرِيباً مِنَ الْحَيِّ، فَأَتَاهُ الْمَلِكُ هُنَاكَ، فَشَقَّ بَطْنَهُ، وَاسْتَخْرَجَا عِلْقَةً

سواده فطرحاها، وغسلا بطنه بماء الثلج في طست من ذهب

قال ابن إسحاق - رحمه الله : وزعم الناس فيما يتحدثون - والله تعالى أعلم - أن أمه السعدية لما قدمت به مكة أضلها في الناس وهي مُقبلة نحو أهله، فالتمسته فلم تجده فأتت عبدَ المطلب فقالت : إنني قدمت بمحمد هذه الليلة، فلما كنت بأعلى مكة أضلني، فوالله ما أدرى أين هو ؟ فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله تعالى أن يرده ﷺ . زاد البيهقي - رحمه الله تعالى : فقال عبد المطلب :

يا ربَّ إنَّ محمدًا لم يوجَدْ فجمعُ قومي كلُّهم مُبَدَّدُ

وزاد ابن سعد وابن الجوزي : فقال عبد المطلب :

لا هُمَّ رُدِّ راكبي محمدًا ارُدُّهُ لِي ثُمَّ اتَّخِذْ عِنْدِي يَدًا
أَنْتَ الَّذِي جَعَلْتَهُ لِي عَضُدًا لَا يَبْعِدُ الدَّهْرُ بِهِ فَيَبْعَدَا

أَنْتَ الَّذِي سَمِيَتْهُ مُحَمَّدَا

فسمع هاتفًا من السماء ^(١) : أيها الناس، لا تضجّوا، إن لمحمد ﷺ ربًّا لن يخذله، ولن يضيعه، فقال عبد المطلب : من لنا به ؟ فقال : إنه بوادي تهامة عند الشجرة اليمنى، فركب عبد المطلب نحوه، وتبعه ورقة بن نوفل، وسارا فإذا النبي ﷺ قائم تحت شجرة يجذب عُصْنًا من أعصانها، فقال له جدّه : من أنت يا غلام ؟ قال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال : وأنا جدّك، فدنّتك نفسي، واحتمله، وعانقه، وهو يبكي، ثم رجع إلى مكة وهو قدّامه على قَرْبُوس فرسه، فاطمأنت قريش، ونحر عبد المطلب عشرين جَزُورًا، وذبح الشّياه والبقر، وأطعم أهل مكة من ذلك ١٠ هـ .

(١) إن هاتف السماء قد حصل لبعض الصحابة: فقد أخرج البزار بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ بعث أبا موسى على سرية في البحر، فبينما هو كذلك قد رفعوا الشراع في ليلة مظلمة، إذا هاتف فوقهم يهتف : يا أهل السفينة، قفوا أخبركم بقضاء قضاء الله على نفسه . فقال أبو موسى : أخبرنا إن كنت مخبرًا، قال : إن الله تبارك وتعالى قضى على نفسه أنه من أعطش نفسه له، في يوم صائف، سقاه الله يوم العطش، فإن يحصل الهاتف من السماء لرسول الله ﷺ وهو صغير من باب أولى .

قالت حليلة : فقالت أمه : ما ردّكما به يا ظئر، فقد كنتما عليه حريصين؟ قلنا : نخشى الإتلاف والأحداث . فقالت : ما ذاك بكما أصدقاني شأنكما؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره، فقالت : أخشيتما عليه الشيطان ؟ كلا والله، ما للشيطان عليه سبيل، والله إنه لكائن لابنى هذا شأن . ألا أخبركم خبره؟ قلنا : بلى، قالت : حملتُ به فما حملتُ حملاً قط أخفّ منه، فأريتُ في النوم حين حملت به خرج منى نور أضاءت له قصور بُصرى من أرض الشام، ثم وقع حين ولدته وقعا ما يقعه المولود معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء . قالت حليلة : وحدثتُ عبدَ المطلب حديثه كله، فقال : يا حليلة، إن لابنى هذا شأنًا، ودِدْتُ أنى أدرك ذلك الزمان، ثم جهّزنى عبدُ المطلب أحسن جهاز، وصرفنى إلى منزلى بكل خير .

وذكر ابن المعلّى الأزدي - رحمه الله تعالى - في كتاب «الترقيص» أن من شعر حليلة مما كانت تُرَقص به النبي ﷺ :

يَا رَبِّ إِذْ أَعْطَيْتَهُ فَأَبْقَيْتَهُ وَأَعْلَاهُ إِلَى الْعُلَا وَرَقَّاهُ
وَادْحَضَ أَبَاطِيلَ الْعَدَا بِحَقِّهِ

وذكر ابنُ سَيع - رحمه الله تعالى - أن حليلة قالت : كنت أعطيه ﷺ الثدى فيشرب منه ثم أحوّلّه إلى الثدى الأيسر فيأبى أن يشرب منه قال بعضهم : وذلك من عدله ﷺ لأنه علم أن له شريكاً في الرضاعة . وكان ﷺ مفطوراً على العدل، مجبلاً على جميل المشاركة والفضل ﷺ وزاده فضلاً، وشرفاً لديه .

الأساس السادس : سفر الرسول ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب إلى المدينة المنورة وعمره ست سنوات، ووفاة آمنة في طريق العودة بالأبواء :

تقدم معنا خوف حليلة السعدية وزوجها على النبي ﷺ بعد حادثة شق الصدر، ومشاهدة نفر الحبشة النصارى له ومحاولة أخذه منها، مما دعا حليلة السعدية لرد الرسول ﷺ إلى أمه وعمره أربع سنوات، فأرادت أمة أن تزور المدينة لتزور قبر زوجها، وتعرف رسول الله ﷺ على أحواله بنى النجار، وجاءته هذه القرابة أن أم عبد المطلب بن هاشم هى سلمى بنت عمرو النجارية (أى أم جد النبي ﷺ من بنى النجار)، فهذه الخؤولة التى ذكر ابن إسحاق لرسول الله ﷺ كما ذكرها ابن هشام (١٨٠ / ١) .

روى ابن سعد (١١٦ / ١) عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره قالوا :

كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، فلما بلغ ﷺ ست سنين خرجت به إلى أحواله بنى عدى بن النجار بالمدينة تزورهم به، ومعه أم أيمن تحضنه وهم على بعيرين، فنزلت به فى دار النابغة، فأقامت به عندهم شهراً، فكان رسول الله ﷺ يذكر أموراً كانت فى مقامه ذلك، ولما نظر إلى أطم بنى عدى بن النجار عرفه وقال ^(١) ﷺ : « كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أحوالى نطير طائراً كان يقع عليه » .

ونظر إلى الدار فقال ﷺ : « ها هنا نزلت بى أُمى، وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله ابن عبد المطلب، وأحسن العوم (أى السباحة) فى بئر بنى عدى بن النجار » .

وكان قوم من اليهود يختلفون (أى : يأتى الواحد تلو الآخر) ينظرون إليه، فقالت أم أيمن : فسمعت أحدهم يقول : هو نبى هذه الأمة، وهذه دار هجرته، فوعيت ذلك كله من كلامه ^(٢) .

(١) أى : بعد الهجرة وزيارته لبית النابغة .

(٢) أخرجه إلى هنا أبو نعيم فى الدلائل (٢٠٤ / ١) .

ثم رجعت به أمه إلى مكة، فلما كانوا بالأبواء تُوفيت آمنة بنت وهب (رحمها الله تعالى) فقبرها هناك.

فرجعت به أم أيمن على البعيرين اللذين قدما عليهما مكة وكانت تحضنه مع أمه.

ثم بعد أن ماتت، ومَرَّ رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية بالأبواء قال: «إن الله قد أذن لمحمد ﷺ في زيارة قبر أمه، فأتاه رسول الله ﷺ فأصلحه. وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ فقليل له، فقال: «أدركتني رحمتها فبكيْتُ».

وروى أبو نعيم عن أم سُماعة بنت أبي رُهم عن أمها قالت: شهدت آمنة بنت وهب في علتها التي ماتت فيها، ومحمد ﷺ غلام يقع له خمس سنين عند رأسها فنظرت إلى وجهه، ثم قالت:

بَارَكَ فِيكَ اللَّهُ مِنْ غُلامٍ	يَا بْنَ الذِي مِنْ حَوْمَةِ الْحِمَامِ
نَجَّابِعُونَ الْمَلِكِ الْمُنْعَمِ	فُودَى غَدَاةَ الضَّرْبِ بِالسَّهَامِ
بِأَيَّةٍ مِنْ إِبْلِ سَوَامِ	إِنْ صَحَّ مَا أَبْصَرْتُ فِي مَنَامِي
فَأَنْتَ مَبْعُوثٌ إِلَى الْأَنَامِ	مِنْ عِنْدِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ
تُبْعَثُ فِي الْحِلِّ وَفِي الْحَرَامِ	تُبْعَثُ بِالتَّحْقِيقِ وَالْإِسْلَامِ
دِينَ أَيْبِكَ الْبَرِّ إِبْرَاهِمَ	تُبْعَثُ بِالتَّخْفِيفِ وَالْإِسْلَامِ
أَنْ لَا تُؤَالِيَهُمَا مَعَ الْأَقْوَامِ	فَاللَّهُ أَنَاكَ عَنِ الْأَصْنَامِ ^(١)

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٢ / ١٢١).

الأساس السابع : الحادثة الثانية لشق صدره ﷺ وعمره عشر سنين وإخراج الغل والحسد من قلبه :

سبق أن سقنا حديث شق صدر النبي ﷺ وهو ابن أربع سنين عند حليلة السعدية واستخراج حظ الشيطان منه، وهناك حادثة ثانية فيها تصريح من النبي ﷺ بحادثة شق صدره الشريف وهو ابن عشر سنين، واستخراج الغل والحسد وإدخال الرأفة والرحمة في قلبه الشريف :

روى الإمام أحمد (٥ / ١٣٩) أن أبا هريرة رضي الله عنه كان حرياً^(١) على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال : يا رسول الله، ما أول ما رأيت في أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً، وقال : «لقد سألت يا أبا هريرة، إنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ قال : نعم، فاستقبلاني بوجوه لم أرها خلقت قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مساً، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه فأضجعاني بلا قصر ولا هضر (أى : ولا جذب)، وقال أحدهما لصاحبه : أفلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقها فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له : أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئاً كههيئة العلقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذى خرج يُشبه الفضة ثم هز إبهام رجلى اليمنى، فقال : اغد واسلم، فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير». أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١ / ٢٨٥) وقال : وهذا الحديث مما تفرد به معاذ بن محمد، وتفرد بذكر السن الذى شق فيه عن قلبه، وأخرجه الهيثمى في مجمع الزوائد (٨ / ٢٢٢) وقال : رواه عبد الله بن أحمد ورجاله ثقات، وثقهم ابن حبان^(٢). ورواه الضياء في «المختارة» والحاكم وأبو نعيم وابن عساكر .

(١) في رواية مجمع الزوائد (٨ / ٢٢٢) : كان حريضاً .

(٢) انظر : الجامع في السيرة النبوية (١ / ١٦٣) تأليف سميرة زايد، قالت في الهامش : وقعت حادثة شق الصدر للنبي ﷺ : أربع مرات اثنتان في الطفولة والثالثة عند المبعث ورابعة في ليلة الإسراء، قال محمد نور : وفي ذلك زيادة فضل من الله وعناية، ومزيد رعاية، وتهيئة للصعود للملا الأعلى . وكذلك روى الروايات الأربع في شق صدر النبي ﷺ أربع مرات . الصالحى في كتابه سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٢ / ٥٨) .

الأساس الثامن : كفالة عبد المطلب جد النبي ﷺ له وحضانة أم أيمن له^(١)
واستسقاء أهل مكة بجده :

١- في كفالة جده :

لما توفيت آمنه أم رسول الله ﷺ ضمّه إليه جده عبد المطلب، ورقّ عليه رقة لم يرقّها على ولده .

قال ابن إسحاق : حدثني العباس بن عبد الله بن مَعْبَد عن بعض أهله قال : كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، وكان لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، وكان رسول الله ﷺ يأتي حتى يجلس عليه فيذهب أعمامه يؤخرونه فيقول جده : دَعُوا ابني . فيمسح ظهره ويقول : إِنَّ لابني هذا لَشَأْنًا .

وروى أبو نُعَيْم عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله . وزاد : دَعُوا ابني يجلس فإنه يحس من نفسه بشيء، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربى قبله ولا بعده.

وروى ابن سعد وابن عساكر عن الزُّهري ومجاهد ونافع وابن جُبَيْر قالوا : كان النبي ﷺ يجلس على فراش جده فيذهب أعمامه ليؤخروه فيقول عبد المطلب : دعوا ابني ليؤنس مُلكاً^(٢).

وقال قوم من بنى مُذَلِّج لعبد المطلب : احتفظ به فإنه لم نَرِ قدماً أشبهه بالقدم التي في المقام منه .

وقال عبد المطلب لأم أيمن : يا بركة احتفظي به لا تَغفلي عنه؛ فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبي هذه الأمة .

(١) تنقل هذه الفقرات من كتاب سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحى (١/ ٢١٤ - ٢٢٣) مع حواشيها حتى نهاية الباب . مع التصرف اليسير والانتقاء، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ محمد على معوض .

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١ / ٧٠) .

وروى المحاملى عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال : سمعت أبى يقول : كان لعبد المطلب مفروش فى الحجر لا يجلس عليه غيره، وكان حرب بن أمية فمن دونه يجلسون حوله دون المفروش، فجاء رسول الله ﷺ يوماً وهو غلام لم يبلغ الحلم فجلس على المفروش فجذبه رجل، فبكى رسول الله ﷺ، فقال عبد المطلب وذلك بعد ما كُفَّ بصره : ما لابنى يبكى ؟ قالوا له : أراد أن يجلس على المفروش فمنعوه . فقال : دعوا ابنى يجلس عليه، فإنه يحس من نفسه بشرف، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربى قبله ولا بعده .

وروى البلاذرى عن الزهرى، ومحمد بن السائب : أن عبد المطلب كان إذا أتى بالطعام أجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه، ربما أقعده على فخذه، فيؤثره بأطيب طعامه، وكان رقيقاً عليه برأ به، فربما أتى بالطعام وليس رسول الله ﷺ حاضراً فلا يمس شيئاً منه حتى يؤتى به . وكان يُفرش له فى ظل الكعبة ويجلس بنؤه حول فرشه إلى خروجه، فإذا خرج قاموا على رأسه مع عبده إجلالاً له، وكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام جفّر فيجلس على الفراش فيأخذه أعمامه ليؤخروه فيقول عبد المطلب : دعوا ابنى ما تريدون منه ؟ إن له لشأناً ويقبل رأسه ويمسح صدره ويُسّر بكلامه وما يرى منه .

وروى ابن نعيم عن محمد بن عمر الأسلمى عن شيوخه قالوا : بينا عبد المطلب يوماً فى الحجر وعنده أسقف نجران وهو يحادثه ويقول : إنا نجد صفة نبي بقى من ولد إسماعيل، هذا البلد مولده وصفته كذا وكذا . وأتى رسول الله ﷺ فنظر إليه الأسقف وإلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدميه فقال : هو هذا، ما هذا منك ؟ قال : هذا ابنى . قال الأسقف : لا، ما نجد أباه حياً . قال : هو ابن ابنى، وقد مات أبوه وأمه حُبل به . قال : صدقت . قال عبد المطلب لبنيه : تحفظوا بابن أخيكم، ألا تسمعون ما يقال فيه ؟

وروى البخارى فى تاريخه وابن سعد والحاكم وصححه، عن كندير بن سعيد ابن حيوة^(١) - ويقال: حيدة - عن أبيه، والبيهقى عن معاوية بن حيدة^(٢) قال الأول : خرجتُ حاجًّا فى الجاهلية . وقال الثانى : خرجت معتمرًا فى الجاهلية . قالوا : فإذا شيخ طويل يطوف بالبيت وهو يقول :

رُدَّ إِلَى رَاكِبِي مُحَمَّدًا ارْزُدَّهُ رَبِّي وَاتَّخِذْ عِنْدِي يَدًا

فسألا عنه، فقيل : هذا سيد قریش عبد المطلب له إبل كثيرة، فإذا ضل منها شىء بعث فيه بنيه يطلبونها، فإذا غابوا بعث ابن ابنه ولم يبعثه فى حاجة إلا وقد أنجح فيها، وقد بعثه فى حاجة أعيانوه وقد أبطأ عليه . قالوا : فلم نلبث حتى جاء رسول الله ﷺ بالإبل معه، فقال له عبد المطلب : يا بنى، حزنْتُ عليك حزناً لا تفارقنى بعد أبداً.

وروى ابن الجوزى عن أم أيمن - رضى الله تعالى عنها - قال : كنت أُحْضِن رسول الله ﷺ فغفلت عنه يوماً، فلم أدر إلا بعبد المطلب قائماً على رأسى يقول : يا بركة . قلت : لبيك . قال : أتدريين أين وجدت ابنى ؟ قلت : لا أدرى . قال : وجدته مع غلمان قريباً من السُدرة، لا تغفلى عنه، فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبي هذه الأمة، وأنا لا آمنهم عليه .

(١) كندير بن سعيد بن حيوة قال : حججت فى الجاهلية فإذا أنا برجل يطوف بالبيت وهو يقول : «رد إلى راكبي محمدا»، وروى عن أبيه روى عنه عباس بن عبد الرحمن : سمعت أبى يقول ذلك .
(٢) معاوية بن حيدة بن معاوية بن كعب القشيري، صحابى، نزل البصرة، ومات بخراسان، وهو جد بهز بن حكيم . التقريب (٢ / ٢٥٩) .

٢- في استسقاء أهل مكة بجده وهو ﷺ معهم وسقياهم ببركته :

روى ابن سعد والبلاذري وابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي عن رُقَيْقَةَ^(١) بنت أبي صَيْفَى بن هاشم وكانت لِدَّة^(٢) عبد المطلب قالت: تتايعت^(٣) على قريش سُنُون^(٤) جذبة أَقْحَلت^(٥) الجلدَ وأدَقَّت العظم، فبينما أنا نائمة أو مهوَّمة إذا هاتف^(٦) يصرخ بصوت صَحْل^(٧) يقول: يا معشر قريش، إن هذا النبي المبعوث منكم قد أظلتكم أيامه، وهذا إِبَان^(٨) مَحْرَجِه، فحيَّه^(٩) بالحيا والخصب^(١٠)، ألا فانظروا رجلاً منكم وسيطاً^(١١)، عظاماً^(١٢)، جساماً^(١٣)، أبيض بَصّاً^(١٤) أَوْطَف^(١٥) الأهداب، سهل الخدين، أَشَم^(١٦) العَرْنين^(١٧)، له فخر يَكْظُم عليه^(١٨) وَسُنَّة يمتدى إليها، فليخلص هو وولده وولد ولده، وليدلف^(١٩) إليه من كل بطن رجل، فيسُنُّوا من

(١) رُقَيْقَةُ: - براء مضمومة وقافين مصغرة: بنت أبي صيفى بن هاشم بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمية والدة محمَّدة بن نوفل. ذكرها ابن سعد في المسلمات المهاجرات.

(٢) لِدَّة الرجل: تَرْبِه الذى ولد هو وإياه في وقت واحد.

(٣) انتتايع - بمثنتين فوقيتين فألف مثناة تحتية فعين مهملة: قال في النهاية: الوقوع في الشر من غير فكرة ولا روية والمتابعة عليه، ولا يكون في الخير. وقال غيره: التتابع بالموحدة يقال في الخير، بالمثناة يقال في الشر.

(٤) السُنُون: جمع سَنَة وهي الجذب بفتح الجيم وسكون الدال المهملة نقيض: الخُصْب.

(٥) أَقْحَلت - يقاف فحاء مهملة: أَيْسَت. مُهَوَّمة - بضم الميم وفتح الهاء وكسر الواو المشددة: قال في النهاية: التهوريم: أول النوم، وهو دون النوم الشديد.

(٦) اهاتف: ما يسمع صوته ولا يرى شخصه.

(٧) بصوت صَحْل - بصاد مفتوحة فحاء مهملتين فلام: أى غير حاد الصوت.

(٨) إِبَان الشيء - بكسر الهمزة وتشديد الموحدة: وقته.

(٩) حيَّه: اسم فعل بمعنى أقبلوا وأسرعوا، وهى كلمتان جعلتا كلمة فحيى بمعنى أقبل وهلا بمعنى أسرع.

(١٠) الخصب - بالكسر - نقيض الجذب.

(١١) وسيطاً - يقال فلان وسيط قومه؛ إذا كان أوسطهم نسباً وأرفعهم محلاً.

(١٢) عظاماً - بضم العين المهملة بمعنى عظيم.

(١٣) جُساماً - بضم الجيم بمعنى: جسيم.

(١٤) بَصّاً - بموحدة فصاد معجمة مشددة: قال في النهاية: البضاضة رَقَّة اللون وصفاءه الذى يؤثر فيه أدنى شيء.

(١٥) الوطف - بفتح الواو والطاء المهملة: طول شعر العين مع سعتها.

(١٦) الشَّمم - ارتفاع قصبه الأنف واستواء أعلاها وإشراف الأرنبة قليلاً.

(١٧) العرنين - بكسر العين المهملة وسكون الراء: الأنف وهذا اللفظ كناية عن الرفعة والعلو وشرف النفس.

(١٨) يكظم عليه - بمثناة تحتانية مفتوحة فكاف ساكنة فطاء مشالة مضمومة فميم، أى: لا يديه ولا يظهره.

(١٩) يدلفون - بidal مهملة وفاء: أى يقربون منهم.

الماء^(١)، وَلَيَمْسُوا مِنَ الطَّيِّبِ، ثُمَّ يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ، وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ سَبْعًا، ثُمَّ لِيَرْتَقُوا أَبَا قُبَيْسٍ فَلْيَسْتَقِ الرَّجُلَ وَلْيُؤَمِّنِ الْقَوْمَ، أَلَا وَفِيهِمُ الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ، فَغُثِمَ إِذَا مَا شَتِمَ.

قالت : فأصبحت مذعورة قد اقشعرَّ جلدِي، وَوَلَّه عَقْلِي، واقتصيت رؤيَايَ، فَنَمْتُ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، فَمَا بَقِيَ أَبْطَحِي إِلَّا قَالَ هَذَا شَيْبَةُ الْحَمْدِ . وَتَنَامَتْ عِنْدَهُ قَرِيشَ وَانْفَضَّ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ، فَشَنُّوا مِنَ الْمَاءِ، وَمَسُّوا مِنَ الطَّيِّبِ، وَاسْتَلَمُوا وَطَافُوا، ثُمَّ ارْتَقُوا أَبَا قُبَيْسٍ، فَطَفِقَ الْقَوْمُ يَدْلِفُونَ حَوْلَهُ مَا إِنْ يُدْرِكُ سَعِيهِمْ مُهْلَةً، حَتَّى قَرَّ لَذَرَوْتَهُ، فَاسْتَكْفُوا جَانِبِيهِ وَمَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ غُلَامٌ قَدْ أَيْفَعَ أَوْ كَرَبٌ.

فَقَالَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ، سَادَّ الْحَلَّةَ، وَكَاشَفَ الْكَرْبَةَ، أَنْتَ عَالِمٌ غَيْرُ مَعْلَمٍ، وَمَسْئُولٌ غَيْرُ مُبْخَلٍّ، وَهَذِهِ عِبَادُكَ وَإِمَاؤُكَ بَعْدَرَاتٍ^(٢) حَرَمَكَ يَشْكُونَ إِلَيْكَ سَتْتَهُمُ الَّتِي قَدْ أَقْحَلْتَ الظَّلْفَ وَالْخُفَّ، فَأَمْطِرْنَا اللَّهُ غِيَاً مَرِيْعاً^(٣) مُغْدِقاً^(٤). فَمَا يَرْحُوا حَتَّى انْفَجَرَتْ السَّمَاءُ بِرَائِهَا، وَكَطَّ الْوَادِي بِشَجِيحِهِ، فَسَمِعْتُ شَيْخَانَ قَرِيشَ وَهِيَ تَقُولُ لِعَبْدِ الْمَطْلَبِ : هَنِيئًا لَكَ أَبَا الْبَطْحَاءِ، بِكَ عَاشَ أَهْلُ الْبَطْحَاءِ .

وَفِي ذَلِكَ تَقُولُ رُقَيْقَةُ بِنْتُ أَبِي صَيْفَى :

بِشَيْبَةِ الْحَمْدِ أَسْقَى اللَّهُ بَلَدَتَنَا وَقَدْ فَقَدْنَا الْحَيَا^(٥) وَاجْلُوذَ الْمَطَرِ^(٦)

(١) شَنُّوا مِنَ الْمَاءِ : اغْتَسَلُوا بِهِ . تَنَامُ الْقَوْمُ : جَاؤُوا كُلَّهُمْ وَتَمَوْا .

(٢) الْعَدْرَاتُ - بَعِينَ مَهْمَلَةً مَفْتُوحَةً فَذَالِ مَعْجَمَةٍ فَرَاءَ فَنَاءً تَأْنِيثٌ : جَمْعُ عَذْرَةٍ بَفَتْحٍ أَوَّلُهُ وَكُسْرُ ثَانِيهِ وَهِيَ فَنَاءُ الدَّارِ، وَهِيَ سَعَةٌ أَمَامِهَا . وَقِيلَ : مَا أَمْتَدَ مِنْ جَوَانِبِهَا .

(٣) مَرِيْعاً - بَفَتْحِ الْمِيمِ : مُحْضَباً .

(٤) الْمُغْدِقُ - بَفَتْحِ الْغَيْنِ الْمَهْمَلَةِ : الْمَطَرُ الْكِبَارُ الْقَطَرُ، وَالْمُغْدِقُ : مُفْعِلٌ فِيهِ .

(٥) الْحَيَا - هُنَا بِالْقَصْرِ : الْمَطَرُ .

(٦) اجْلُوذَ الْمَطَرِ - بِجِيمٍ فَلَامٍ مُشَدَّدَةٍ مَفْتُوحَتَيْنِ فَذَالِ مَعْجَمَةٍ : قَالَ فِي النِّهَايَةِ : أَمْتَدَ وَقْتُ تَأْخِرِهِ وَانْقِطَاعِهِ .

فَجَادَ بِالْمَاءِ جَوْنِيَّ^(١) لَهُ سَبْلٌ^(٢) سَحًا^(٣) فَعَشَتْ بِهِ الْأَنْعَامُ وَالشَّجَرُ
سَيْلٌ مِنْ اللَّهِ بِالْمَيْمُونِ طَائِرُهُ^(٤) وَخَيْرٌ مَنْ بَشَّرَتْ يَوْمًا بِهِ مُضَرٌّ
مُبَارَكُ الْأَمْرِ يُسْتَسْقَى الْغَنَامُ بِهِ مَا فِي الْأَنْامِ لَهُ عِدْلٌ^(٥) وَلَا خَطَرٌ^(٦)

الأساس التاسع : فيما حصل له ﷺ في سنة سبع من مولده ووفاة جده ووصيته
لأبي طالب بالرسول ﷺ :

١- مرضه ﷺ في سنة سبع من عمره:

قال الحافظ أبو الفرج بن الجوزي في «الوفا» في سنة سبع من مولده ﷺ : أصابه
مرض شديد فعولج في مكة فلم يُعَ.

فقليل لعبد المطلب : إن في ناحية عكاظ راهباً يعالج الأعين فركب إليه فناداه وديره مُغلق فلم
يجبه فترزل ديره حتى كاد أن يسقط عليه فخرج مبادراً فقال : يا عبد المطلب، إن هذا الغلام نبى
هذه الأمة، ولو لم أخرج إليك لخرَّ على ديري فارجع به واحفظه لا يقتله بعض أهل الكتاب . ثم
عالجه وأعطاه بعض ما يعالج به . وألقى له المحبة في قلوب قومه وكل من يراه .

(١) جُونِيَّ - بفتح الجيم وسكون الواو وتشديد الياء : منسوب إلى الجون وهو من الألوان يقع على
الأبيض والأسود، والجمع جُون بضم الجيم.

وقيل : الياء فيه للمبالغة كما يقال في الأحمر أحمرى .

(٢) السَّبْل - بسين مهملة فباء موحدة مفتوحتين : المطر الجود الهائل يقال : أسبل المطر والدمع إذا هطلا
والأسم السَّبْل بالتحريك .

ويقال : السَّح : الصَّب الكثير .

(٣) سَحًا - بسين فحاء مهملة مشددة مفتوحتين المطر الجود الهائل يقال : أسبل المطر والدمع إذا هطلا
والأسم السَّبْل بالتحريك .

ويقال : السَّح : الصَّب الكثير .

(٤) الميمون طائره : أى المبارك حظّه، ويجوز أن يكون أصله من الطير السارح والبارح .

(٥) العدل : بكسر العين : المثل .

(٦) الخطر : بالخاء المعجمة : الشبيه والمثل .

٢- في وفاة جده عبد المطلب ووصيته لأبى طالب برسول الله ﷺ وما ظهر في ذلك من الآيات :

اختلف في سن رسول الله ﷺ حين مات جده فقيل : وله ثمانى سنين وقدمه في الإشارة .
وقيل : بزيادة شهر وعشرة أيام . وقيل : تسع ، وقيل : عشر ، وقيل : ست .
ولعبد المطلب عشر ومائة سنة . وقدمه في الإشارة . وقيل : اثنتان وثمانون سنة ، ويقال :
بلغ مائة وأربعاً وأربعين سنة . ويقال : خمساً وتسعين سنة . ويقال : مائة وعشرين .
قال الواقدي : وليس ذلك بثبت .

وروى محمد بن عمر الأسلمى عن أم أيمن : أنها حدثت أن رسول الله ﷺ كان
يكي خلف سرير عبد المطلب وهو ابن ثمانى سنين ، ودفن بالحجون .
وروى ابن سعد عن الواقدي عن شيوخه أنه قال لرسول الله ﷺ : أتذكر موت
عبد المطلب ؟ قال : نعم ، أنا يومئذ ابن ثمانى سنين .

قال ابن إسحاق وغيره : ولما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب
بحفظ رسول الله ﷺ وحياته والقيام عليه ، وأوصى به إلى أبى طالب ؛ لأن عبد الله
وأبا طالب كانا لأم واحدة ، فلما مات عبد المطلب كان أبو طالب هو الذى يلى أمر
رسول الله ﷺ بعد جده .

وروى ابن سعد والحسن بن عرفة وابن عساكر عن ابن عباس وغيره قالوا : لما
توفى عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ فكان يكون معه ، وكان يحبه حباً
شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه وصَبَّ به ^(١) صباية لم يصب مثلاً قط ،
وكان يخصه بالطعام ، وكان عيال أبى طالب إذا أكلوا جميعاً أو فرادى لم يشبعوا وإذا

(١) قال الصالحى - رحمه الله : صَبَّ به : يقال : صَبَّ يَصْبُّ بالفتح صباية : رَقَّ شوقه .

أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا . وكان أبو طالب إذا أراد أن يغدّيهم أو يعشيهم يقول : كما أنتم حتى يحضر ابني . فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فيفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يُشبعهم، وإن كان لبناً شرب أولهم ثم يتناول العيال القَعْبُ^(١) فيشربون منه فيزوّون عن آخرهم من القعب الواحد، وإن كان أحدهم ليشرب قعباً وحده فيقول أبو طالب : إنك لمبارك . وكان الصبيان يصبحون رُمصاً شُعْثاً^(٢) ويصبح رسول الله ﷺ ذهيناً كحياًلاً .

وروى أبو نعيم عن أم أيمن قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ شكاً جوعاً ولا عطشاً لا في كبره ولا في صغره، وكان يَغْدُو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة فربما عرضنا عليه الغداء فيقول : أنا شبعان .

وروى الحسن بن سفيان عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال : كان أبو طالب يقرب للصبيان تصبيحهم فيضعون أيديهم فينتهبون فيكف رسول الله ﷺ يده، فلما رأى ذلك أبو طالب عزل له طعامه .

الأساس العاشر : أخبار كفالة عمه أبي طالب الرسول ﷺ :

١ - في استسقاء أبي طالب برسول الله ﷺ وعطش أبي طالب وشكواه ذلك للنبي ﷺ :

روى ابن عساكر^(٣) عن جُلْهَمَة^(٤) بن عُرْفُطَة قال : قدمت مكة وقریش في قحط، فقائل منهم يقول : اعتمدوا اللات والعزى . وقائل منهم يقول : اعتمدوا مناة الثالثة الأخرى، فقال شيخ وسيم حسن الوجه جيد الرأي : أنى^(٥) تؤفكون^(٦)

(١) القَعْب : قذح من خشب . الشَّعْث : تلبد الشعر لقله تعهده بالدهن .

(٢) الرَّمَص . بالتحريك : وسخ يجتمع في الموق، فإن سال فهو غمص، وإن جمد فهو رَمَص، الشَّعْث : تلبد الشعر لقله تعهده بالدهن .

(٣) انظر: الزرقاني على المواهب (١ / ٣٥٥) .

(٤) جُلْهَمَة : بجيم مضمومة ولام ساكنة وهاء مضمومة وميم مفتوحة .

(٥) أنى : بمعنى كيف .

(٦) تؤفكون : تصرفون .

وفيكُم بقية إبراهيم وسُلالة إسماعيل . قالوا : كأنك عَنيتَ أبا طالب ؟ قال : إيَّاهُ . فقاموا بأجمعهم وقمت معهم فدققنا عليه بابهُ ، فخرج إلينا رجلٌ وسيم حسن الوجه ، عليه إزار قد اتَّشح به ، فثاروا إليه فقالوا^(١) : يا أبا طالب أقحط الوادى وأجْدَب العيال فهلُم فاستسِق لنا ، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دُجَّة^(٢) تجلَّت عليه سحابةٌ قَتْماء^(٣) وحوله أغيلمة ، فأخذهُ أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ، ولاد^(٤) بأصبعة الغلام وفي السماء قَرعة^(٥) ، فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا ، وأغدق^(٦) واغدودق^(٧) وانفجر له الوادى ، وأخصب النادى والبادى . وفي ذلك يقول أبو طالب :

وأبيضُ يُستسقى العِمامُ بِوَجْهِهِ ثمالُ^(٨) اليتامى عِصْمةٌ للأراملِ
يلوذُ به الهلاكُ مِنْ آلِ هاشِمٍ فهُم عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وفَواضِلِ

وقال ابن سعد : حدثنا الأزرق ، حدثنا عبد الله بن عون ، عن عمرو بن سعيد أن أبا طالب قال : كنت بذى المجاز^(٩) مع ابن أخي ، يعنى النبى ﷺ ، فأدركنى العطش فشكوت إليه فقلت : يا بن أخى ، قد عطشت ، وما قلت له ذلك وأنا أرى عنده شيئاً إلا الجَرع قال : فثنى وَرَكَه ثم قال : يا عم ، عطشت ؟ قلت : نعم . فأهوى بعقبه إلى الأرض فإذا أنا بالماء ، فقال : اشرب ، فشربت .

وله طرق أخرى رواها ابن الخطيب و ابن عساكر .

(١) ثاروا إليه : بالمثلثة : قاموا .

(٢) دُجَّة - بدال مهملة فجيم مضم ومتمين : الظَّلَّة ، والجمع دُجَّات .

(٣) قَتْماء - بقاف فتاء مثناة فوقية : الغبراء من القَتَام بالفتح ، وهو الغبار .

(٤) لاد به : طاف .

(٥) قَرعة : سحابة .

(٦) أغدق : كثر .

(٧) اغدودق : كثر كذلك .

(٨) الثمال : تقدم الكلام عليه فى أسماؤه ﷺ .

(٩) ذو المجاز : مكان على فرسخ من عرفة .

٢- في سفره ﷺ مع عمه الزبير بن عبد المطلب إلى اليمن :

قال ابن الجوزي في «الوفا» : لما أتت لرسول الله ﷺ بضع عشرة سنة خرج في سفر مع عمه الزبير، فمروا في وادٍ فيه فحل من الإبل يمنع من يجتاز، فلما رآه البعير برك وحك الأرض بكلِّكله^(١)، فنزل عن بعيره وركبه فسار حتى جاوز الوادي ثم خلى عنه، فلما رجعوا من سفرهم مرُّوا بوادٍ مملوء ماء يتدفق فوققوا، فقال رسول الله ﷺ : «اتبعوني» . ثم اقتحمه فاتبعوه فأبى الله الماء . فلما وصلوا إلى مكة تحدثوا بذلك، فقال الناس : إن لهذا الغلام شأنًا .

٣- في سفره ﷺ مع عمه أبي طالب إلى الشام :

روى ابن سعد وابن عساكر عن داود بن الحصين - بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين - أن رسول الله ﷺ كان ابن اثنتي عشرة سنة . قال البلاذري : وهو الثبت . وروى أبو نعيم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن سعد وابن عساكر عن عبد الله ابن محمد بن عقيل، وابن سعد عن عبد الرحمن بن أبزى، والبزار والترمذي - وحسنه - عن أبي موسى الأشعري، وابن سعد عن داود بن الحصين، وأبو نعيم عن محمد بن عمر الأسلمي، والبيهقي عن محمد بن إسحاق قالوا : إن أبا طالب أراد المسير في ركب إلى الشام فقال له رسول الله ﷺ : أي عم إلى من تخلفني ها هنا ؟ وصَبَّ به^(٢) رسول الله ﷺ فرقَّ له أبو طالب، فلما سارا أردفه خلفه فخرج به فنزلوا على صاحب دير، فقال صاحب الدير : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني . قال : ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون له أب حي . قال : ولم ؟ قال : لأن وجهه وجه نبي، وعينه عين نبي . قال : وما النبي ؟ قال : الذي يوحى إليه من السماء فيُنبي أهل الأرض . قال : الله أجل مما تقول . قال : فاتق عليه اليهود .

(١) الكلِّكل والكلِّكال : الصَّدْر .

(٢) قال الصالحى - رحمه الله : وصَبَّ به : بضاد مهملة فباء موحدة - : أى مال إليه ورقَّ عليه . ويروى وضَبَّت به بضاد معجمة فباء موحدة فمثلثة، أى : تعلق به وأمسك .

ثم خرج حتى نزل براهب أيضاً صاحب دَيْر فقال : ما هذا الغلام منك ؟ قال :
ابنى . قال : ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون له أب حى . قال : ولم ؟ قال : لأن
وجهه وجه نبي، وعينه عين نبي . قال : سبحان الله ! أجل مما تقول .
وقال أبو طالب للنبي ﷺ : يا بن أخي، ألا تسمع ما يقولون ؟ قال : أى عم، لا
تُشكر الله قُدرة .

٤ - خبر بحيرا^(١) :

فلما نزل الراكب بُصْرَى وبها راهب يقال له : بَحِيرَا في صومعة له، قال ابن
إسحاق : وكان أعلم أهل النصرانية، فلما نزلوا ذلك العام ببَحِيرَا، وكانوا كثيراً ما
يمرون به قبل ذلك لا يكلمهم ولا يعرض عليهم، حتى إذا كان ذلك العام نزلوا
قريباً من صومعته^(٢)، فرأى وهو في صومعته رسول الله ﷺ في ركبٍ حين أقبلوا
وغمامة تظله من بين القوم، ثم أقبلوا فنزلوا في ظلِّ شجرة قريباً منه، فنظر إلى الغمامة
حين أظلت الشجرة وتهصّرت^(٣) أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حين استظل
تحتها، فلما رأى بحيرا ذلك نزل من صومعته وجعل يتخلّلهم، حتى جاء فأخذ بيد
رسول الله ﷺ وقال : هذا سيّد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال له أشياخ
من قريش : وما علمك ؟ قال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يمرّ بشجر ولا حجر
إلا خرّ ساجداً ولا يسجدان إلا لنبي، وإنى أعرفه بخاتم النبوة في أسفل من
غضروف كتفه مثل التفاحة . ثم رجع وأمر بطعام كثير فصنع ثم أرسل إليهم

(١) قال الصالحى - رحمه الله : بحيرا بباء موحدة مفتوحة فحاء مهملة مكسورة فراء فألف، قال غير
واحد : مقصورة، ورأيت بخط مُغلطَاى وصاحب الغُرر وغيرهما عليها مدة . فالله تعالى أعلم .
قال المسعودى : واسمه : سرجس، كذا فيها وقفت عليه من نسخ الرّوض . وفي النسخ التى
وقفت عليها من الإشارة : جرجيس بكسر الجيمين بينهما راء وبعد الثانية مثناة تحتية فسين مهملة .
وهكذا رأيت بخط صاحبها في «الزهر» وصحح عليه . وكذلك هو في الإصابة للحافظ . وجزم
الذهبي في ترجمة أبى الفتح سعيد بن عقبة من «الميزان» بأن بحيرا لم يدرك البعثة . وأقرّه الحافظ في
اللسان . وهو غير مصروف للعجمة والعلمية . وهو فى الأصل اسم نبي .
(٢) الصّومعة : منزل الراهب، سميت بذلك؛ لأنها محدّدة الرأس، من قوهم : ثريدة مُصمّعة؛ إذا دُفّت
وحُدّدت رأسها .

(٣) تهصّرت : مالت وتدلت عليه .

فقال : إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، وإنى أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم، وحركم وعبدكم .

فقال رجل : يا بحيرا، إن لك اليوم لشأناً ما كنت تصنع هذا فيما مضى، وقد كنا نمرّ بك كثيراً، فما شأنك ؟

فقال بحيرا : صدقت قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً تأكلون منه فاجتمعوا إليه فلما أتاهم به وكان رسول الله ﷺ راح مع من يرمى الإبل وفي رواية : فتحلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم.

فلما نظر بحيرا لم يجد الصفة التي يعرف ووجد عنده، فقال : يا معشر قريش، لا يتخلف أحدٌ منكم عن طعامي هذا، قالوا : ما تخلف عنك أحد يأتيك إلا غلام هو أحدث القوم سنّاً، تخلف في رحالنا . فقال : لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام . فقام الحارث بن عبد المطلب فأتى به، فلما أقبل وعليه غمامة تظله .

فقالوا : انظروا عليه غمامة تظله . فلما دنا من القوم وجدهم سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه .

فقال : انظروا مال فيء الشجرة عليه، هذا نبي هذه الأمة الذي يرسله الله إلى الناس كافة .

وفي «الزهر» نقلاً عن محمد بن عمر الأسلمي : أن رسول الله ﷺ لما فارق تلك الشجرة التي كان جالساً تحتها وقام انفلقت من أصلها حين فارقتها، وجعل يلحظه لحظاً شديداً ينظر إلى أشياء في بدنه قد كان يجده عنده في صفته، وقال لقومه : هذه الحُمْرة التي في عينيه تأتي وتذهب أو لا تفارقه ؟

قالوا : ما رأيناها فارقته قط . فأقبل على النبي ﷺ فقال : يا غلام، أسألك باللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . وإنما قال له بحيرا ذلك؛ لأنه سمع قومه يحلفون بهما .

فقال له رسول الله ﷺ : « لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت بُغضهما شيئاً » .

فقال له بحيرا : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك . فقال : «سلنى عما بدا لك» .
فجعل يسأله عن أشياء من حال نومه ويقظته، وجعل رسول الله ﷺ يخبره، فوافق
ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على
موضعه من صفته عنده، فلما فرغ منه أقبل على عمه أبى طالب فقال : ما هذا الغلام
منك ؟

قال : ابنى . فقال بحيرا : ما هو بابنك، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون له أب
حتى .

قال : فإنه ابن أخى .

قال : فما فعل أبوه ؟

قال : مات وأمه حامل به .

قال : صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلدك، واحذر عليه اليهود، فوالله إن رأوه
وعرفوا منه ما عرفت لَيُبْعَثَنَّ شَرًّا، فإنه كائن لابن أخيك شأن . فأسرع به إلى بلاده،
ولا تذهب به إلى الروم، فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه^(١) .

والتفت عنه بحيرا فإذا هو بسبعة نفر قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال : ما
جاء بكم ؟

قالوا : جئنا إلى هذا النبی الذى هو خارج فى هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا
بُعث إليه ناس وإنا قد أخبرنا خبره بطريقك هذا .

قال : أفرايتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟

قالوا : لا، فبايعوه وأقاموا معه . فأتى قريشاً فقال : أنشدكم بالله أيكم وليه ؟

قالوا : أبو طالب، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وأرسل معه رجلاً،
وزودهم الراهب من الكعك والزيت .

(١) أخرجه ابن سعد (١/ ١٠٠)

وقال أبو طالب في هذه السَّفرة قصائد منها ما ذكره ابن إسحاق، وأبو هفان في ديوان شعر أبي طالب :

عَنْدِي بِمِثْلِ مَنَازِلِ الْأَوْلَادِ	إِنَّ ابْنَ أَمْنَةَ الْأَمِينِ مُحَمَّدًا
وَالْعَيْسُ قَدْ قَلَّصَنَ بِالْأَزْوَادِ	لَمَّا تَعَلَّقَ بِالزَّمَامِ رَحْمَتُهُ
مِثْلُ الْجُمَانِ مُفَرَّقِ الْأَفْرَادِ	فَارْقَضَ مِنْ عَيْنِي دَمْعٌ ذَارِفٌ
وَحَفِظْتُ فِيهِ وَصِيَّةَ الْأَجْدَادِ	رَاعَيْتُ مِنْهُ قَرَابَةَ مَوْصُولَةٍ
بِيضِ الْوُجُوهِ مَصَالِيهِ أَنْجَادِ	وَأَمْرُهُ بِالسَّيْرِ بَيْنَ عُمُومَةٍ
فَلَقَدْ تَبَاعَدُ طِيَّةُ الْمُرْتَادِ	سَارُوا لِأَبْعَدِ طِيَّةٍ مَعْلُومَةٍ
لَا قُوا عَلَى شَرْكِ مَنْ الْمِرْصَادِ	حَتَّى إِذَا مَا الْقَوْمُ بُصْرَى عَايَنُوا
عَنْهُ وَرَدَّ مَعَاشِرَ الْخُسَادِ	حَبْرًا فَأَخْبَرَهُمْ حَدِيثًا صَادِقًا
ظَلَّ الْعِمَامَةُ نَاغِرَى الْأَكْبَادِ	قَوْمًا يَهُودًا قَدْ رَأَوْا مَا قَدْ رَأَى
عَنْهُ وَأَجْهَدَ أَحْسَنَ الْإِجْهَادِ	سَارُوا لِفَتْكِ مُحَمَّدٍ فَتَهَاهُمْ
فِي الْقَوْمِ بَعْدَ تَجَادُلٍ وَتَعَادِ	فَشَنَى زُبَيْرًا بَحِيرٌ فَاثْنَى
عَنْ قَوْلِ حَيْرٍ نَاطِقٍ بِسَدَادِ	وَنَهَى دَرِيسًا فَانْتَهَى لِمَا نَهَى

الأساس الحادى عشر : حفظ الله تعالى للنبي ﷺ في فتوته وشبابه عما كان عليه أهل الجاهلية، واشتهاره بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة قبل بعثته، وتعظيم قومه له ﷺ .

قال داود بن الحصين فيما رواه ابن سعد وابن عساكر، وابن إسحاق فيما رواه البيهقي وغيره : فشبَّ رسول الله ﷺ يَكْلُوهُ الله ويحفظه ويحوطه من أقدار الجاهلية ومعاييبها، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أَفْضَلَ قومه مروءةً، وأحسنهم خُلُقًا، وأكرمهم حسابًا، وأحسنهم جِوَارًا، وأعظمهم حِلْمًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفُحْش والأخلاق التى تدنُس

الرجال تنزهاً وتكرماً. ما رثي مُلاحياً^(١) ولا مُمارياً أحداً، حتى ما اسمُه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

وذكر أبو هاشم محمد بن ظفر في «خير البشر بخير البشر» : حج أَكْثَمُ^(٢) بن صَيْفَى حكيمُ العرب، والنبِيُّ ﷺ في سن الحُلُم، فراه أَكْثَمُ فقال لأبى طالب : ما أسرع ما شبَّ أخوك ! فقال : ليس بأخى ولكنه ابن أخى عبد الله . فقال أَكْثَمُ : أهو ابن الذبيحين ؟ قال : نعم . فجعل يتوسَّمه، ثم قال لأبى طالب : ما تظنون به ؟ قال : نُحسن به الظن وإنه لوفى سَخَى . قال : هل غير هذا ؟ قال : نعم، إنه لذو شدة ولين، ومجلس ركين^(٣)، وفضل متين . قال : فهل غير هذا ؟ قال : إِنَّا لَنَتِيَمَنَّ بِمَشْهَدِهِ وَنَتَعَرَّفُ الْبَرَكَةَ فِيهِمَا لِمَسَّهُ بِيَدِهِ . فقال أَكْثَمُ : أقول غير هذا، إنه ليضرب العرب قامطةً - يعنى جامعة - بيد حائطة، ورجل لائطة^(٤)، ثم ينعق بهم إلى مَرْتَع مَرِيح^(٥)، وورِدٍ سريع^(٦)، فمن اخْرُورُط^(٧) إليه هُداة، ومن اخْرُورَف^(٨) عنه أَرادته^(٩) . وروى ابن سعد عن الربيع بن خُثَيْم قال : كان يُتْحَاكَمُ إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ يحدث عما كان الله يحفظه في صغره من أمر الجاهلية، وأنه قال : لقد رأيتُنِي^(١٠) في غلمان من قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الصبيان، كلنا قد تعرَّى وأخذ إزاره وجعله على رقبتة يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم وأدبر؛ إذ لكمنى لأكُم لكممةً شديدةً ثم قال : شُدَّ عليك إزارك .

(١) مُلاحياً : مخلصاً لأحد ولا سبأً له .

(٢) أَكْثَمُ : بئاء مثله .

(٣) رَكِين : أى له أركان عالية، أراد بذلك شدة قومه، وركن الشيء : جانبه .

(٤) لائطة - بمشاة تحتية مكسورة وطاء مهملة : أى لاصقة لازمة .

(٥) مَرِيح : أى : كثير النماء والزيادة .

(٦) وِرْدٌ سريع : مجئ قريب .

(٧) اخْرُورُط - بخاء معجمة فراء فواو ساكنة فراء مهملة فطاء مهملة : أى مال إليه وتبعه .

(٨) اخْرُورَف عنه - بخاء فراء مفتوحة مهملتين فواو ساكنة فراء ففاء : أى عدل عنه .

(٩) أَراداه : أهلكه .

(١٠) رأيتُنِي - بضم التاء : أى رأيت نفسي .

قال : فأخذته فشدته علىّ، ثم جعلت أنقل الحجارة على رقبتى، وإزارى علىّ من بين أصحابى .

وهذه القصة شبيهة بما وقع عند بناء الكعبة .

روى الطبرانى والبيهقى فى الدلائل من طريق عمرو بن قيس، وابن جرير فى التهذيب من طريق هارون بن المغيرة، وأبو نعيم فى المعرفة من طريق قيس بن الربيع، وفى الدلائل من طريق شعيب بن خالد، كلهم عن سمالك بن حرب وأبو نعيم من طريق الحكم بن أبان، كلاهما عن عكرمة عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال : حدثنى أبى العباس بن عبد المطلب قال : لما بنت قريش الكعبة انفردت رجلين رجلين ينقلون الحجارة، فكنّت أنا وابن أخى، فجعلنا نأخذ أزرنا فنضعها على مناكبنا، ونجعل عليها الحجارة، فإذا دنونا من الناس لبسنا أزرنا، فبينما هو أمامى، إذ صُرع فسعيت وهو شاخص ببصره إلى السماء فقلت : يا ابن أخى، ما شأنك؟ قال : نُهِيت أن أمشى عرياناً . قال : فكتمته حتى أظهره الله بنبوته .

وورد من حديث جابر وأبى الطفيل . ويأتیان .

وروى الترمذى وغيره عن أبى موسى أن بحيرا حين حلف النبى ﷺ باللات والعزى، قال له النبى ﷺ : « لا تسألنى باللات والعزى شيئاً فوالله ما أبغضت بُغضهما شيئاً »^(١).

وعن على عليه السلام قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهتمون به من الغناء إلا ليلتين كلتاها عصمنى الله منهما »^(٢) . قلت : ليلة لبعض فتیان مكة ونحن فى رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبى : أبصر لى غنمى حتى أدخل مكة فأُسْمَرَ^(٣) بها كما يسمر الفتیان . فقال : بلى، فدخلت حتى إذا جئت أول

(١) أخرجه أبو نعيم فى الدلائل (١٢٧) وابن سعد فى الطبقات (١/١/١٠٠) . قاله محققا سبل الهدى والرشاد .

(٢) أخرجه أبى نعيم فى الدلائل (٥٨/١) وابن حجر فى المطالب (٤٢٥٣) وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/٢٨٧) . قاله محققا سبل الهدى والرشاد .

(٣) أسمر : أكل .

دارٍ من دور مكة سمعت عزفاً^(١) وغرابيل^(٢) ومزامير . قلت : ما هذا ؟ قيل : تزوج فلان وفلانة . فجلست أنظر . وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت ؟ فقلت : ما فعلتُ شيئاً، ثم أخبرته بالذي رأيت . ثم قلت له ليلةً أخرى : أبصر لي غنمي حتى أَسْمُرُ بمكة . ففعل، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت ؟ فقلت : لا شيء ثم أخبرته بالذي رأيت، فوالله ما هممت ولا عُدْتُ بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته». رواه ابن إسحاق وإسحاق ابن راهويه والبخاري وابن حبان . قال الحافظ : وإسناده حسن متصل .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء] نادى رسول الله ﷺ في قريش بطناً بطناً فقال : «أرايتم إن قلت لكم : إن خيلاً بسفح هذا الجبل أكتتم مصدقي ؟» قالوا : نعم، ما جربنا عليك كذباً قط^(٣) . رواه الشيخان .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ما ذبح لغير الله، فما ذُقت شيئاً ذبح على النُصب حتى أكرمني الله برسالته»^(٤) . رواه أبو نعيم .

وعن عليّ رضي الله عنه قال : قيل للنبي ﷺ : هل عبدت وثناً قط ؟ قال : «لا» . قالوا : فهل شربت خمرأً قط ؟ قال : «لا»، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان» . رواه أبو نعيم وابن عساكر .

(١) العزف : قال في الصحاح : المعازف : الملاحى، والمعاظف : اللاعب بها والمغنّى، وقد عزف عزفاً .
(٢) الغرابيل : جمع غُرْبَال، والمراد به هنا الدف، سمي بذلك، لأنه يشبه الغربال في استدارته .
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٩/٨) (٤٩٧١) ومسلم (١٩٣/١) (٣٥٥-٢٠٨) . قاله محققا سبل الهدى والرشاد .
(٤) أخرجه أبو نعيم في الدلائل (٥٩/١) وذكره المتقى الهندي في الكنز (٣٤٠٨٠) قاله محققا سبل الهدى والرشاد .

وعن أم أيمن - رضي الله عنها - قالت : كان بُوانة صنماً تحضره قريش يوماً في السَّنة، فكان أبو طالب يحضره مع قومه وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك معه فيأبى، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عمَّاته غضبن عليه وقلن : يا محمد، ما تريد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً؟! فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب إلى ما شاء الله، ثم رجع مرعوباً فزعاً فقالت عمَّاته : ما دهاك ؟ قال : أخشى أن يكون بى لم، فقلن : ما كان الله يبتليك بالشیطان وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذى رأيت ؟ قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يا محمد، لا تمسه . قالت : فما عاد إلى عيد لهم . رواه ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر .

وعن جُبیر بن مُطعم قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية وهو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم؛ توفيقاً من الله تعالى له .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها وهم الحُمس^(١) يقفون عشية عرفة بالمرزلفة ويقولون : نحن قطن البيت^(٢) . وكانت بقية الناس والعرب يقفون بعرفات فأنزل الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة : ١٩٩]، فتقدموا فوقفوا مع الناس . رواه الشيخان .

وروى يعقوب بن سفيان عن الزُّهرى : أن قريشاً سمَّت رسول الله ﷺ الأمين قبل أن ينزل عليه الوحي، فطفقوا ألا ينحروا جزوراً إلا التمسوه فيه فيدعولهم فيها .

وروى الشيخان من حديث عائشة في حديث بدء الوحي لما أتاه جبريل بالوحي، قال لخديجة : «لقد خشيت على نفسي»، وأخبرها الخبر . فقالت له : كلا أبشر، فوالله لا يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق .

(١) الحُمس : يقال حمس بالكسر فهو أحمس، أى : شديد صُلب في الدِّين والقتال، ومنه : حمس قريش ومن ولدت : وكنانة وجديلة وقيس .

(٢) قُطْن البيت : أى سُكَّانه، جمع قاطن .

تنبيهات^(١) :

الأول : ما ذكره ابن إسحاق من قصة تعرّيه ﷺ وأنه في صغره وأنه أمر بالستر، قال السهيلي وتبعه ابن كثير وأبو الفتح والحافظ : إن صحَّ حمل على أن هذا الأمر كان مرتين مرة في حال صغره، ومرة في أول اكتهاله عند بنيان الكعبة . واستبعد ذلك مُغلطاي في كتابيه «الزهر» و«دلائل النبوة» بأنه ﷺ إذا نهى عن شيء مرة لا يعود إليه ثانياً بوجه من الوجوه . وأيضاً في حديث العباس - أى : الآتى في باب بناء البيت : أنه لأول ما نودى .

وأما ما رواه ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق النضر بن عبد الرحمن عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال : كان أبو طالب يعالج زمزم، وكان النبي ﷺ ينقل الحجارة وهو غلام يأخذ إزاره ويتقى به الحجارة فغشى عليه، فلما أفاق سأله أبو طالب فقال : أتانى آتٍ عليه ثيابٌ بيض فقال لى : استتر، فكان أول شيء رآه رسول الله ﷺ من النبوة أن قيل له : استتر، وهو غلام . قال : فما رُئيت عورته من يومئذ^(٢) . فقد قال الحافظ في الفتح : إن النضر ضعيف، وقد خبط في إسناده وفي متنه، فإنه جعل القصة في معالجة زمزم ولم يذكر العباس . وقد قدمنا أن عكرمة والحكم بن أبان روايا القصة عن ابن عباس عن أبيه في قصة بناء البيت .

الثانى : روى أبو يعلى وابن عدى والبيهقى وابن عساكر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع ملكين خلفه وأحدهما يقول لصاحبه : اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول الله ﷺ، فقال : كيف نقوم خلفه وإنما عهده باستلام الأصنام فُقيل ؟ فلم يعد بعد ذلك يشهد مع المشركين مشاهدهم .

وقول الملكين : وإنما عهده باستلام الأصنام، قال الطبرانى والبيهقى : يعنى : أنه

(١) قالها الصالحى - رحمه الله - في سبل الهدى والرشاد .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الدلائل (١٤٥) . قاله محققا كتاب سبل الهدى والرشاد .

شهد مع من استلمها، والمراد بالمشاهد التي شهدها مشاهد الحلف ونحوها لا مشاهد استلام الأصنام .

وقال الحافظ في المطالب العالية : هذا الحديث أنكره الناس على عثمان بن أبي شيبة فبالغوا : والمنكر منه قوله عن الملك : «عنده باستلام الأصنام»، فإن ظاهره أنه باشر الاستلام وليس ذلك مراداً، بل المراد أنه شهد مباشرة المشركين استلام أصنامهم . انتهى .

الأساس الثاني عشر : في شهوده ﷺ حرب الفجار^(١) :

وكان في شوال، كما قاله الواقدي . وقيل : في شعبان كما في الرّوض .

لما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة أو خمس عشرة فيما قال ابن هشام، وقال ابن إسحاق : عشرين سنة، كان قبل المبعث بعشرين سنة هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان . وكان الذي هاجها أن عروة الرّحّال ابن عتبة أجار لطيمةً للنعمان بن المنذر، فقال البرّاض بن قيس أحد بني ضمرة : أُنْجِرْها على كِنَانَةٍ؟ قال : نعم وعلى الخلق . فخرج فيها عروة الرّحّال وخرج البرّاض يطلب غفلته، حتى إذا كان بَتَيْمَن ذِي طَلال بالعالية غفل عروة، فوثب عليه البراض فقتله في الشهر الحرام؛ فلذلك سُمي الفجار . فأتى آتٍ قريشاً فقال : إن البراض قد قتل عروة، وهم في الشهر الحرام بعُكاظ . فارتحلوا وهوازن لا تشعر، ثم بلغهم الخبر، فاتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً : وكان لكنانة وقيس فيه ستة أيام مذكورة : شَمْظَة^(٢) ويوم العَبْلَاء^(٣) وهما عند عُكاظ، ويوم الشَّرَب^(٤) وهو أعظمها يوماً، وفيه قيّد أبو سُفْيَان وأُمَيَّة وحرب أبناء أُمَيَّة أنفسهم

(١) الفجار - بكسر الفاء بمعنى : المفاجرة، كالقتال بمعنى المقاتلة، وذلك أنهم كان قتالهم في الشهر الحرام ففجروا فيه جميعاً فسمى الفجار . وكانت للعرب فجارات أربع ذكرها المسعودي .

(٢) شَمْظَة : اسم مكان .

(٣) يوم العَبْلَاء - بعين مهملة مفتوحة فباء ساكنة فلام معجمة .

(٤) يوم الشَّرَب - بشين معجمة فراء مفتوحتين فباء موحدة .

كيلا يفرُّوا فُسِّمُوا العَنَابِسُ^(١)، ويوم الحُرَيْرَةِ^(٢) عند نخلة^(٣) انهزمت قريش إلا بنى نصر منهم فإنهم ثَبَتُوا، وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم، أخرجهم أعمامهم معهم .
وروى ابن سعد أن رسول الله ﷺ قال : قد حضرْتُه - يعنى : حرب الفجار - مع عمومى ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى لم أكن فعلته، وكنت أنبِّل على أعمامى^(٤) .

وكان آخر أيام الفجار أن هوازن وكنانة تواعدوا للعام القابل بعكاظ فجاءوا للموعد، وكان حرب بن أمية رئيس قريش وكنانة، وكان عتبة بن ربيعة يتيماً في حجره فضر به حرب وأشفق من خروجه معه، فخرج عتبة بغير، إذنه فلم يشعر إلا وهو على بعيره بين الصَّفَيْنِ ينادى : يا معشر مُضِر، عَلَامَ تَفَانُونَ ؟^(٥) فقالت له هوازن : ما تدعو إليه ؟ قال : الصلح، على أن ندفع لكم دية قتلاكم وتعفوا عن دماننا . قالوا : وكيف ذاك ؟ قال : ندفع إليكم رُهْناً منا . قالوا : ومن لنا بهذا ؟ قال : أنا . قالوا : ومن أنت ؟ قال : أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس . فرضوا ورضيت كنانة، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً فيهم حكيم بن حزام، فلما رأت بنو عامر بن صعصعة الرهن في أيديهم عفوا عن الدماء وأطلقوهم، وانقضت حرب الفجار .
وكان يقال : لم يسُد من قريش مُمْلَق - يعنى فقيراً - غير عتبة وأبى طالب، فإنهما سادا بغير مال .

تنبيه : ذكر السهيلي أن النبي ﷺ لم يقاتل في حرب الفجار . وقد تقدم عن ابن سعد أن رسول الله ﷺ قاتل فيه .

-
- (١) العنابس - بعين مهملة فنون مخففة فألف فباء موحدة مكسورة فسين مهملة : جمع عنبس وهو الأسد . قال في الصحاح : العنابس من قريش : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر وهم ستة : حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو، وُسِّمُوا بالأسد، والباقون يقال لهم : الأعياص، بعين مهملة فمثناة تحية فصاد مهملة، وهم أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر، وهم أربعة : العاص وأبو العاص والعيص أبو العيص .
(٢) الحريرة - بحاء مهملة : تصغير حرة .
(٣) نخلة - بلفظ واحد : شجر النخل موضع قريب من مكة .
(٤) أخرجه ابن سعد (٨/١/١) .
(٥) تفانون - بمشاة فوقية حذف منه أخرى : مأخوذ من الفناء .

الأساس الثالث عشر : في رعيته ﷺ للغنم :

عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بعث الله نبياً إلا راعى غنم » . فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟ قال : « وأنها رعيته لأهل مكة بالقراريط »^(١) .

رواه ابن سعد والبخارى وابن ماجه .

وعن جابر بن عبد الله - رضى الله تعالى عنهما - قال : كنا مع رسول الله ﷺ نجنى الكبّاث، فقال : « عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه ، فإنى كنت أجنيه إذ كنت أراعى الغنم » . قلنا : وكنت تراعى الغنم يا رسول الله ؟ قال : « نعم . وما من نبى إلا وقد رعاها »^(٢) . رواه الإمام أحمد وابن سعد والشيخان .

وروى أبو داود الطيالسى والبخارى وابن منده وأبو نعيم وابن عساكر عن بشر ابن حرب البصرى مرسلًا ، والإمام أحمد وعبد بن حميد عن أبى سعيد ؓ قالوا : افتخر أهل الإبل والشاء، فقال رسول الله ﷺ : « بُعث موسى وهو راعى غنم، وبعث داود وهو راعى غنم، وبعث وأنا راعى غنم لأهل بأجباد »^(٣) .

تنبيهات :

الأول : قال العلماء - رضى الله تعالى عنهم : الحكمة في إلهام رعى الغنم قبل النبوة : أن يحصل لهم التمرّن برعيها على ما سيكلّفون من القيام بأمر أمتهم، ولأن في نخلطتها ما يحصل الحِلْم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من

(١) أخرجه البخارى (١١٦/٣) وابن ماجه (٢١٤٩) والبيهقى في السنن (١١٨/٦) وأبو نعيم في الدلائل (٥٥/١) قاله محققا سبل الهدى والرشاد .

(٢) أخرجه البخارى (١٩١/٤) ومسلم (١٦٢١/٣) (١٦٣ - ٢٠٥) وأحمد في المسند (٣٢٦/٣) . قاله محققا سبل الهدى والرشاد .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٩٦/٣) وابن سعد في الطبقات (٨٠/١/١) وابن المبارك في الزهد (٤١٦) . قاله محققا سبل الهدى والرشاد .

ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسيرها ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك؛ من أول وهلة لما تحصل لهم من التدريج على ذلك برعى الغنم، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها . وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن عَلِمَ أنه أكرم الخلق على الله تعالى ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتّصريح بِمَنَّتِهِ، عليه وعلى إخوانه من الأنبياء ﷺ وعليهم أجمعين .

الثاني : في فتاوى الشيخ - رحمه الله تعالى - نقلاً عن الحنفية والمالكية والحنابلة ومقتضى مذهب الشافعي أنه يعزّر من قال: كان النبي ﷺ راعى غنم . إذا عيّر برعيها .

الثالث : في بيان غريب ما سبق :

رعيته - بكسر الراء المراد : الهيئة . والغنم : منصوب مفعول المصدر وهو رعيته . على قراريط : قال الحافظ : على بمعنى الباء، وهي للسبية . وقيل : إنها للظرفية كما سيتبين . وفي رواية ابن ماجه، عن سُويد بن سعيد، والإسماعيلي عن حسان بن محمد كلاهما عن عمرو بن يحيى : «كنت أرهاها لأهل مكة بالقراريط» . قال : سويد بن سعيد : يعنى كل شاة بقيراط . يعنى القيراط الذى هو جزء من الدينار أو الدرهم .

وقال الإمام أبو إسحاق الحرّبي : قراريط : اسم موضع بمكة ولم يرد القراريط من الفضة . وصوّبه ابنُ الجوزي تبعاً لابن ناصر وخطأ سُويداً في تفسيره . قال الحافظ : لكن رجح الأول لأن أهل مكة لا يعرفون بها مكاناً يقال له قراريط . وزعم بعضهم أن في قوله ﷺ في الرواية الأخرى : «وبعثت وأنا راعى غنم بأجياد» ردّاً لتأويل سُويد؛ لأنه ما كان يرعى بالأجرة لأهله، فتعين أنه أراد المكان، فعبّر تارة بأجياد وتارة بقراريط .

وليس الردّ بجيد؛ إذ لا مانع من الجمع بأن يرعى لأهله بغير أجره وغيرهم بأجرة. والمراد بقوله: «أهلى»: أهل مكة، فيتحد الخبران، ويكون في أحد الحديثين بين الأجرة وفي الآخر بين المكان، فلا تنافي في ذلك.

وقال بعضهم: لم تكن العرب تعرف القرايط الذى هو من النقد، ولذلك جاء في الصحيح: «ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط»، وليس الاستدلال لما ذكر من نفى المعرفة بواضح. انتهى كلام الحافظ.

قلت: تأويل سعيد هو الذى فهمه الإمام البخارى وهو الأجرة؛ ولذا ذكره فى الإجارة.

الكَبَاث - بكاف فباء موحدة مفتوحتين فألف فثاء مثناة: النَّضِيج من ثَمَر الأَرَاكِ.

جِيَاد: موضع بأسفل مكة معروف من شعابها، ذكره بغير هَمْز البَكْرِىُّ فى معجمه.

أَجِيَاد: بفتح أوله وإسكان ثانيه وبالمثناة التحتية والبدال المهملة: كأنه جمع

جَيِّد، موضع من بطحاء مكة من منازل قريش، فإذا يقال له جِيَاد و أَجِيَاد بالهمز وعدمه.